سدرا

القمر السوري الحزين

رواية

د. أحمد كمال عباس

سدرا
المؤلف : د. أحمد كمال عباس

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : يناير 2018
رقم الإيداع : 27884 / 2017
الترقيم الدولي : 978-977-769-204-5

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف–
الدور الخامس – مكتب 57م :
01010490247
ت : 23963002(02)

الإهداء:

إلى ابنة صديقي الطفلة سدرا مروان أهدي لها هذه الرواية هي والآلاف من الأطفال السوريين آملًا أن يأتي يوم قريب يتنفسون فيه الحرية في وطنهم.

- 1 -

أخيرًا أخذت بعض حقي في هذه البلاد، قلتها في نفسي وأنا أبتسم، انتقمت من ضرائري الثلاث، النصر له لذة، والانتقام ذروتها، إنها النشوة التي تري فيها أعداءك يتساقطون واحدًا تلو الآخر. انقبض قلبي، لماذا كل هذا الشر في قلبي، في ديني نخاف الشر، لم يكن الشر طبعا أصيلًا في ولكنني أعيد اكتشاف نفسي، فما واجهته من محن الدنيا والزمن تعلمت علي أياديها الشر، أنا من طائفة الإيزيديين التي تخاف الشر، قذفتني الدنيا من بلاد الشام إلى الخليج العربي، وألقاني الزمن في حضن هذا الرجل.

«لا لا يجب ألا أبرر لنفسي الشر شر»، كيف أعود إلي سابق عهدي أسكنت ضميري، واستلقيت على السرير العريض في نشوة وبجانبي زوجي الشيخ فواز نائم منهك، لم تكن شهوتي بسبب اللقاء الجنسي مع زوجي، ولكن لأنه نصرني على باقي زوجاته، أعلن لهن أن أنا سدرا سيدتهن وعليهن طاعة أوامري، وإلا سيكون

عقابهن وخيمًا، وضريهن من أجلي، بل من أجل إمتاع نفسه، لأنني تعلمت أخيرًا كيف أمتعه وأخلب عقله وأجعله عطشًا لي دومًا مهما نال مني، لقد أصبحت أنثي فلم أعد تلك الفتاة المراهقة التي خطفها المجاهدون، لماذا أتذكر الأيام السوداء، ولكن هل يملك مثلي رفاهية النسيان؟

يا ليت أيام طفولتي في الحسكة طالت، أحب قريتي جدًا، أحب الحسكة رغم أنني لم أزرها

إلا للدراسة في المرحلة المتوسطة، كم أشتاق إلي نداء زميلاتي لي: ــ كولي.

أبدًا لن أنسي اسمي الأصلي، مهما طال الزمن، ومهما تغيرت الظروف، هل ينسي أحد اسمه، فقط أشتاق إلي اسمي، وأشتاق أكثر إلي أبي، كنت الأثيرة لديه، أنا صغيرة المنزل المفضلة، تدليله لي منحني الثقة والقوة رغم مخاوف أمي، أشتاق إليها وإلى شقيقي باسل ونور، أصرت أمي على هذه التسمية لأخي الأكبر رغم معارضة أبي، تقربًا للدولة أيام كان باسل الأسد ملء السمع والبصر.

لماذا أثير نفسي بالشجون وأتذكر الأموات. هيهات أن أنسى، كأنهم كانوا معي أمس، عامان مضيا منذ أن غابت شموسهم، يوما مشئومًا كان حين جاءت الأنباء أن قوات الخلافة الإسلامية

في طريقها إلي قريتنا، سمعنا ممن نجِّي من القرى الأخرى أساطير حول ما حدث وما فعلوه فيهم، رأي أبي أن نرحل ورفضت أمي أن نترك أرضنا ومنزلنا، كنت حينئذ في الخامسة عشرة من عمري، أنهيت المرحلة المتوسطة بتفوق، كان جسدي مازال صغيرًا ولكن شعري كما هو طويل، أينعم لم يصل إلي ردفي كما الحال الآن.

جاء يوم القيامة، وندمت أمي علي رأيها. الكل يجري بلا هدف، وفي دقائق معدودة سيطرت قوات داعش علي قريتنا، سالت الدماء أنهارًا، اختبأنا في جرن قديم ولكنهم عثروا علينا، كنا آخر الأسري في القرية فبدأت تسليتهم بنا، أمسك والدتي أربعة مجاهدين وتناوب اغتصابها الكثيرون أمام أبي وشقيقيِّ، ضحكوا من صرخاتها، انتهزت فرصة انشغالهم وحاولت أن أجري، شجعني أبي ودموع الذل والمهانة في عينيه:

ــ اجري يا كولي بسرعة.

انتبه المتطرفون، طاردوني، حاولت أن أسرع، ولكن الخوف والشمس الحامية أثقلا قدميَّ وكأن بهما أطنانا من أكياس الرمال، لحقوا بي وربطوني، نزعوا من إصبعي خاتم ذهب محلى بعقيق أزرق، كانت أمي قد اشترته لي لتحميني صورة الطاووس المرسومة عليه. فالطاووس رمز الملاك الأعظم الذي يحمي شعبنا.

ملوا من اغتصاب أمي فافرغوا فيها الرصاص، صرخت وأنا

أري الدماء تسيل من جسدها وهي طريحة الأرض، وقبل أن أكمل صرختي قتلوا والدي وشقيقيَّ، ضربني أحدهم علي وجهي، صرخ فيه رجل من بعيد:

ـ لا تضربها.

دار حولي الرجل، في عينيه نظرات غريبة، ليست الرغبة فقط، عيناه تلمعان لمعان عيون الذئب في الليل حين يصطاد فريسة، ابتسم آخر للرجل:

ـ هي جاريتك وأمتك، وإن كنت لا تريدها فهبها لي.

ـ لا، رغم عيونها العسلية الجذابة.

ـ ولكنك كنت تبحث عن من في مثل سنها.

ـ سأبيعها لليهودي.

وبلهجة حازمة أمر الرجل الذي عرفت بعدها أنه الأمير أن يضعوني في خيمة بمفردي، وأن يحسنوا معاملتي، وأن يقدموا طعامًا جيدًا لي، يريد بضاعة جيدة صالحة للبيع، كان الأمير ثلاثيني، أبيض طويلًا، له لحية كثيفة وشارب خفيف، يرتدي الجلباب الشرعي، وعمامة غريبة الشكل علي رأسه، لا تستطيع أن تعرف جنسيته، لغته هي العربية الفصحى، في عيناه مكر وغموض.

رمقني بنظرة شهوانية ووضع يده علي ذقني:

ـ خسارة هذه الملاحة، ولكن المال للجهاد أهم.

هتف الرجل الآخر الذي اتضح أنه مساعده ثم أشار بيده للآخرين فهتفوا بصوت جهوري:

ـ الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

كان المساعد أقل طولًا من أميره، وله نفس لحيته وشاربه، وتقريبًا نفس عمره، ولهجته سورية واضحة، ذهبوا ليستعرضوا باقي الغنائم، وضعوني في خيمة قديمة ليس بها سوي سرير من الجريد والرمال، كانت الخيمة منصوبة علي جذعين من الأعمدة الخشبية قيدوا قدمي ويديّ، بكيت، أرعبتني دماء أسرتي، وأرعبني مصيري، تساءلت هل مازالت النخاسة موجودة، لطالما باع العثمانيون النساء منا ولكن كان ذلك منذ زمن بعيد، حين سمعنا عن بيعهن واغتصابهم للنساء، هونت أمي من الأمر:

ـ لن يسمح بذلك الرئيس ولا الجيش ولا الحزب.

ها هم سمحوا يا أمي، ماذا أفعل؟

ورثت من أمي الجمال والشعر الطويل، وورثت من أبي عيونه العسلية، ولكن صفاتي النفسية كانت أقرب لأبي، أحب البحث والحياة، فلست مثل أمي التي ترضي بالواقع والموجود.

أحضروا طعامًا ليس بالجيد ولا بالسيئ، حلوا قيود يدي، فالتهمت ما قدموا، فعندما أكون غاضبة أو خائفة التهم الطعام التهامًا، دهش الجندي المكلف بحراستي من منظري وأنا ألتهم

الطعام، أخذ بشد شعر لحيته ثم صرخ فيّ بوجه غاضب:

ــ فعلًا كافرة، قتلنا أسرتك ولك هذه الشهية.

لم أرد عليه، بل لم أنظر له إلي أن انتهيت، انفجرت في أذني كلمة كافرة، كلمتان أكرههما منذ أن كان عمري خمس سنوات »كافرة ونجسة« طالما عيرنا بهما جيراننا من المسلمين والمسيحيين، نظراتهم لنا باشمئزاز، في سرهم وأحيانًا كثيرة علنًا يلعنونا لأننا نعبد الشيطان.

تململ زوجي علي السرير، لاحظ أني مازالت مستيقظة:

ــ لماذا لم تنمي يا سدرا؟

ــ سأنام الآن إن شاء الله.

ابتسمت حين تذكرت جارتي الصغيرة سدرا والتي سمّيت نفسي لاحقًا علي اسمها، كانت تحب اللعب معي، وكنت أحب اللعب معها، رغم شجارنا مع بعض أينا أشد جمالًا، وأينا أكثر بياضًا، لطالما ضربتها والدتها لتمنعها عني:

ــ لا تلعبي معها إنها كافرة نجسة.

ولكنها كانت تعود للعب معي، حتى هدد أبوها والدي:

ــ أبعد ابنتك الكافرة عن ابنتي وإلا..

ضربني أبي حتى يمنعني عنها، كانت المرة الوحيدة التي ضربني فيها، بكي معي، ثم احتضنني:

ـ أنا خائف عليك يا كولي.

ـ لماذا أنا كافرة ونجسة؟

سألته ببراءة، بهت وجه أبي، لم يستطع الرد، نهرتني أمي كعادتها، لم أفهم معني الكلمتين، ولم أفهم لماذا هاتان الصفتان ملتصقتان بعشيرتي؟

تحرك الزوج الشيخ فواز بجانبي هامسًا:

ـ ماء أريد ماءً.

ـ أمر سيدي.

قمت بسرعة وأحضرت ماء من الثلاجة الصغيرة الموجودة في جانب الغرفة. غرفة نومي واسعة شبابيكها مغلقة بالحديد، ستائرها حريرية، وبها أنتريه للجلوس، وفي الجانب المقابل للثلاجة يوجد حاسوبي.

سندت رأسه على صدري ليشرب، وتعمدت أن أغطي رأسه بشعري الأسود الجميل الطويل، نظر لي ولصدري في شبق:

ـ ما أحلي الماء وأنا جالس على أثدائك.

ـ ضحكت بخلاعة، مما أثاره، أراد تقبيلي، اعترضنه:

ـ أخاف على سيدي فأنت اليوم بذلت مجهودًا كثيرًا.

ـ أحبك ولا تخافي فأنا في قوة هرقل.

ـ قل ما شاء الله حتى لا تحسد نفسك.

سُر كثيرًا الشيخ فواز بهذا الحديث، فقد ملأت وجهه الابتسامة والرضا، هذا الأبله ازداد تأكيده بحسن إسلامي، وبحبي له، والأهم بفحولته، لم يتركني وخلع الجلباب، فأدركت أنه لن يتركني، فنمت تحته كجثة هامدة أصطنع الابتسامة والدلال:

ــ جاريتك تحت أمر سيدها.

انهال عليَّ بالقبلات، ونزع ملابسي في لحظة:

ــ بل زوجتي وحبيبتي.

اعتلاني، تأوهت كما يحب، مثلت دور السعيدة المبتهجة بفحولة زوجها، لم أرفض له طلبًا، بل ودون أن يطلب في لحظة أعرفها جيدًا نمت على ظهري رغم آلامي النفسية حتى يكمل شذوذه، صرخ زوجي فرحًا حين رآني أرفع رجلي وأفتح مؤخرتي:

ــ صلاة النبي صلاة النبي.

واصل زوجي فعله، وازدادت تأوهاتي، كانت تأوهات ألم والساذج يعتقد أنها تأوهات نشوة تأثرًا بفحولته، وبعد أن أفرغ شهوته، شكرته وقبلت يده وقدمه على نعمة مضاجعتي، وهرولت إلى حمام الغرفة، أفرغت ما في جوفي في كرسي الحمام، دخلت البانيو دون أن أغلق ستائره، كنت أرتاح في الحمام بعيدًا عن فواز، كما يعجبني لون السيراميك الأزرق الفاتح، كل الأيزيديين يقدسون اللون الأزرق.

أكره هذا الشيء المسمي زورًا زوجي، صليت في سري أن أتحمل هذا المغرور، فتحت ماء الدش، ألقيت جسدي فيه، داعبت بيدي أعضائي التناسلية، أحس براحة حين أداعبها، أنظر إلي جسدي وأستخسره في فواز، أداعب حلمة صدري برقة، ليس كما يفعل فواز بخشونة وهمجية، أكملت شهوتي حتى أهدأ فأنا إنسانة من لحم ودم، مهما وضعت من أقنعة، ومهما كانت جودتي للتمثيل.

أنا لست أنا، اسمي ليس اسمي، ديني ليس ديني، أعيش في منزل غير منزلي، أحيا في وطن غير وطني، وأنام مع راجل لم أختره زوجا(!). كنت خائفة من عادة الخطف في قريتنا، فالعريس يخطف عروسته ثم يفاوض أهلها، وها قد ابتليت بالخطف الحقيقي، بل والبيع كأي سلعة.

عادت بي الذكريات الحزينة وأنا أجفف جسدي، تذكرت قريتي الصغيرة، ومنزلنا المتواضع، ولعبي فيه.

تذكرت أول ليلة في الخيمة، كنت نائمة علي سرير من جريد، أحسست بحركة غريبة، فوجئت بمساعد الأمير يتحسس جسدي، صرخت بصعوبة، حاول أن ينزع عني ملابسي، صرخت مرة أخري صرخة عالية، كتم فمي بيده، ولكن صرختي العالية وصلت لمسامع الأمير الذي ما إن رأي معاونه يحاول اغتصابي حتى انتابته نوبة غضب شديدة، نظر له بدهشة، عيناه تنطق: هل يوجد

في العالم شخص يخالف أوامره وهو أمير المؤمنين؟ ممثل الله على الأرض: يعدم من يشاء ويبيع من يشاء ويسجن من يشاء، تهابه الدول الكبرى قبل الصغرى، وقد بايعته جماعته ومنهم هذا المساعد على السمع والطاعة. ارتعد المعاون بعدما أحس بوجود الأمير، ملأ عيونه الخوف كأنه يعلم مصيره جيدًا، حاول أن يمسك مسدسه الذي وقع منه عند محاولته معي ولكن جنود الأمير كانوا أسرع، استعطف الأمير ولكن الأمير ازداد هياجًا ونشوة وكأنه يتلذذ بالاستعطافات وتزيده قسوة، فسكت مساعد الأمير ولم يتكلم ونظر إلى الأرض، يبدو أنه استسلم لمصيره، صرخ فيه الأمير:

ـ أنت ماذا تفعل هنا؟

لم يرد المعاون فأكمل الأمير صراخه وهو في قمة الغضب:

ـ تريد اغتصابها؟

ـ إنها سبي كافرة من عبدة الشيطان.

ـ ولكني أمرت.

ـ وأنا طلبتها.

ـ وقد رفضت.

كان هذا المساعد قد طلب من الأمير من قبل أن يهبني له ولكنه رفض، لم يرد المعاون، ونظر إلى الأرض مرة أخري، أشار الأمير بيده للحراس أن يتركوه، سار المعاون خطوات، وسرعان ما أفرغ

الأمير الرشاش في ظهره وسط صيحاتي وصراخي.

أمر الأمير بحمل الجثة وتعليقها على الأغصان ثلاثة أيام عبرة لمن يكفر ويخالف أوامره:

ـ احملوا هذا الكافر العاصي لأوامر الله وأوامر خليفته.

انتابتني الهستيريا، أخذت أصرخ بشدة ليس علي قتل هذا الشرير بل لأني تذكرت منظر أهلي وشممت رائحة دمائهم، استدعوا لي الطبيب الذي أعطاني حقنة مهدئة، فنمت أحلم بكل كوابيس الدنيا وكل ما رأته عيني من دماء، لم تهدئ الحقنة المنومة من مخاوفي، فقط أخرست لساني ولكن الخوف احتل عقلي وقلبي، مازلت أتذكر تفاصيل الكوابيس بدقة بعد مرور هذه السنوات.

ـ سدرا لماذا تأخرت؟

ـ سآتي حالًا يا سيدي.

قطع علي فواز ذكرياتي، وسألني عند عودتي إلى السرير:

ـ لماذا استحممت؟

ـ حتى أنام طاهرة إذا جاءني الموت فجأة.

فزع الزوج، قبلني على جبهتي، وقاطع حديثي:

ـ حفظك الله يا حبيبتي.

ـ وحفظك الله يا سيدي.

تقلبت على السرير، طردت أوجاع الماضي، اللحظة لحظة نصر،

سأحتفل. لم أهنأ بالنوم كثيرًا فقد أذن الفجر، فانتبهت، تعودت أن أوقظ فواز وأوقظ الآخرين حتى أبعد شبهة الكفر عني، ولا أتذكر كلمات السباب المعتادة كافرة نجسة، وأيقظت فواز بيد حنونة:

ــ الصلاة يا سيدي.

تململ فواز، فواصلت إيقاظه:

ــ الفجر فلا يجعلك الشيطان تتكاسل.

انقبض صدري عند ذكر الملاك الأعظم، واستيقظ زوجي سعيدًا حامدًا الله على هذه الزوجة التي لا مثيل لها.

- 2 -

في الصباح حاول فواز أن يبيت هذه الليلة معي، رجوته ألا يفعل، دهش من دموعي ونحن جالسون نتناول الإفطار علي منضدة السفرة والتي تتوسط حجرة الطعام بجوار الصالة:

ــ أولًا سيدي لا أريدك أن ترتكب خطيئة لأن الله يقول: «اعدلوا».

ــ وثانيًا؟

ــ سيكرهونني أكثر مع أنني أحبهم.

دمعت نوبا الخادمة الفلبينية من كلامي، قام فواز قبل رأسي، ثم قبل يدي:

ــ يالك من زوجة صالحة، لو كان هذا العرض لهن لوافقن علي الفور.

ــ إنهم نساؤك، وحبهن لك يا سيدي لا يقل عن حبي لك.

قبلت يده، وشكرت الملاك الأعظم في سري أنني سأرتاح منه

الليلة، سأتفرغ اليوم للكتابة والكمبيوتر.

تذكرت أول جهاز اشتراه والدي لي قبل حادثة غزوة الدواعش بعامين،، وثورة أمي عليه حين أحضر الجهاز تعلمت عليه بسرعة وفتحت لي شبكة الإنترنت آفاقًا واسعة للمعرفة، تري أمي أن والدي أضاع النقود، لأن هذا الجهاز غير ضروري، فمن البدء كانت أمي ضد محاولة أبي تعليمي، فهي كغيرها من النساء تنتظر اليوم الذي يأتي فيه رجل يخطف ابنتها ويتزوجها كعادة أهل طائفتنا.

تنبهت علي صوت فواز:

ــ لو أردت شيئًا أرسلي لي الخادمة.

ــ شكرًا سيدي.

ودعته بالدعوات إلي أن أوصلته إلي الخارج كعادة أهل هذه البلاد، طلبت من نوبا ألا توقظني إلا عند أذان الظهر، لأنني متعبة من ليلة أمس، ابتسمت بخبث وقالت:

ــ تبدو علي وجهك سيدتي آثار ليلة أمس.

نوبا برغم إشارتها الوقحة طيبة، وتحبني لأنني أحسن معاملتها، لست كالباقيات اللاتي يعاملن الخدم مثل العبيد كما قصت لي عن صديقاتها الفلبينيات، لا أعرف لها عمرًا، الفلبينيات هنا لا يبدو عليهن سن، وحتى الآن لا أعرف إن كانت فتاة أو سيدة، لم أهتم

بالسؤال عن ذلك، هي طيبة وتحبني وهذا يكفي لي، قبل أن أتجه إلي غرفتي استأذنت في الخروج لصويحباتها:

ــ افعلي ما شئت، انتظري.

أخرجت نقودًا وأعطيتها لها، شكرتني ووجهها مبتسم، منعتها من قبل من تقبيل يدي، أعلم أنها ستدخرها ولن تصرف شيئًا، سترسلها إلي أبيها المقعد، أمها تعمل عاملة في الفلبين وجميع إخوتها من الإناث هنا في الخليج، اسمها الحقيقي نوبيسة ولكن يقولون لها نوبا هنا.

استلقيت علي السرير، ثقلت جفوني، ولكن عقلي مازال يعمل، تذكرت أول صباح لي مع المتطرفين وكيف كنت حريصة علي الصلاة والسجود إلي الشمس بعد أول شروقها، تخليت الآن عن صلواتي إلا في سري حتى لا يراني أحد.

تذكرت الجندي الأبله الذي رآني أسجد ثلاث مرات علي الأرض، فاعتقد أنني مسلمة، وحاول أن ينبهني أن السجود مرتين فقط، وأنني يجب ارتداء طرحة في الصلاة. الساذج! إنني أسجد لنور الشمس الذي يتجلي فيها يزدان الأعظم، إلهي. ختمت صلاتي بدعاء الفجر:

– مدحنا وثناؤنا للملائكة والرجال.

والصالحون وسط القبب

تراءي النور في الغسق
ركب فرس العبادة
بان نور الفجر
يا ملك الشهيد، يا نفس سلطان إيزيد
أحد لحد ما يريد، أنت الشيخ وأنا المريد
أنا تحت إرادتك منقذنا سلطان إيزي
يا رجال الصباح صباح المعشوقين
أنت صاحب التاج من الأول إلي الآخر
أعط الخير وأقلب عنا الشر
حقا الحمد لله رب العالمين

كنت ألاحظ أن الجندي يراقبني، ولكني لم أهتم، تغير وجهه بعد أن سمع دعائي، فوجئت به يبصق علي وجهي صارخا:

ــ كافرة نجسة

صحوت أهدأ في ذلك الصباح البعيد بفضل الحقنة المهدئة، تناولت طعام الإفطار، أخذوني إلي العراء لقضاء الحاجة، مرت الأيام بطيئة، هدأت تقبلًا للأمر الواقع، تحسنت معاملتهم لي لأنني لا أبكي مثل الأخريات، حتى حضر الخواجة إيزاك إلى خيمتي، كان رجلًا عجوزًا تخطي الستين من عمره، ذا ظهر مقوس وكأنه أحدب نوتردام، فقد معظم أسنانه إلا أنه كان مبتسمًا، كانت

ابتسامته مع شيب شعره يطمئنا نحن الأسيرات.

دخل عليَّ مع الأمـير، أعطاني حلوي، لمعت عيني الأمير، فأدركت أن الأمير سعيد لأنه فهم أنني أعجبت اليهودي، فاليهود كما قرأت من قبل لا يسعون إلا وراء الربح، طلب مني إيزاك الوقوف، دار حولي مرات عديدة، طلب مني السير، ولم أفهم سبب طلبه، إلا أنني نفذت الأمر، سأله الأمير:

ــ ما رأي الخواجة؟

ــ معقولة.

ــ فقط، إنها ممتازة.

ــ كم تطلب يا صديقي.

ــ لا تقل إنك صديقي.

صرخ الأمير في وجهه، ابتسم إيزاك ليتجنب الشجار:

ــ معذرة نسيت يا مولانا الأمير.

ــ هل أصاحب يهوديًا مثلك؟

ــ ولكنك تتعامل معي.

ــ الرسول عليه الصلاة والسلام تعامل معكم، لذلك لا ضير في للتعامل معك.

ــ لا علينا كم تطلب؟

ــ كم تدفع؟

تفاصلا، الأمير يطلب أعلي سعر، إيزاك يعرض أبخس سعر، وأنا أشاهدهم وكأنهم يبتاعون كرسيًا لا إنسانة من بني البشر.

يهم إيزاك بالرحيل، يستوقفه الأمير:

ــ إن لها سوقًا.

ــ ولكن يلزمها الكثير من الإعدادات، نقود تدفع على مدار العام، من تعليم وإطعام وحراسة وخلافه.

ــ وما تعرضه أيضًا قليل.

نظر له الأمير بحدة، شعرت بخوف إيـزاك ولكنه مازال متماسكًا، أكيد يعلم إيزاك كما علمت أنا وغيري أن هؤلاء الناس، عشقي للقتل والنساء والدولار، أخيرًا اتفقا، كانت السعادة في عيون إيزاك، رأيتها أيضًا في ابتساماته التي دارها بسرعة، وحتى يؤكد خسارته رضخ بالقول اللئيم:

ــ أمر مولاي الأمير، حتى لو خسرت فأنا لا أريد إغضابك

ابتسم إيزاك مرة أخري حين سار وراء الأمير، فقد حقق مراده، ابتسم دون أن يراه الأمير، أما عينا الأمير فنطقت بالدهشة لقلة سعري، كان يتوقع الكثير، أمر الأمير إيزاك قائلًا:

ــ تعالَ انظر باقي البضاعة في باقي الخيمات.

خرج إيزاك والأمير يتقدمه، حاولت أن أفهم ماذا يحدث، تساءلت في نفسي:

ولكنني لست امرأة بالغة فماذا يستفيدون؟

فكرت أيضًا في هذا اليهودي، معلوماتي القليلة تؤكد أن المسلمين واليهود أعداء، فكيف يتعاونون سويًا؟

بعد ساعة دخل عليّ أحد جنود الأمير، طلب مني أن أتحرك، أدخلوني مبني صغيرًا، بدا المبني وكأنه مدرسة قديمة، كان به العديد من الفتيات، دخلت حجرة مع فتاة أخري علمت أن اسمها مريم، الغرفة صغيرة جدًا، بها سريران صغيران، ولا يوجد بها أثاث آخر سوي منضدة صغيرة حقيرة ومقعدان خشبيان قديمان، جاءنا إيزاك مبتسمًا:

ــ بعد غدٍ نرحل، كن عاقلات، سأترك معكم ولدي ومساعدي إفرايم إذا أردتم طعامًا أو دخول الحمام » نادوا عليه؟.

دار إيزاك على باقي الغرف وباقي البنات بعد أن أغلق الباب علينا، كانت مريم في عمري أو أكبر قليلًا، وجهها جميل وإن كان لا يضاهي وجهي جمالًا، هذا ليس غرورًا ولكنها حقيقة، فالكل كان يشيد بجمالي منذ أن كنت طفلة صغيرة، ولكن تظهر لديها علامات الأنوثة أكثر مني، القوام لين وغض، الثديان أكبر وأكثر استدارة، الردفان واضحان في الحركة، علي رسغ مريم صليب، فأدركت أنها مسيحية، كانت خائفة، وما إن أغلقوا الباب حتى أجهشت بالبكاء، احتويتها بذراعي وكأنني أمها وكنا جالستين

على أحد الأسرة وسألتها برقة:

ــ لماذا تبكين؟

ــ ألا تدري ماذا يحدث؟

ــ أدري ولكن البكاء لن يغير من الأمر شيئًا.

ــ إننا سبايا باعونا لهذا اليهودي.

ــ وبعد؟

ــ سيبيعنا لآخر فهو مجرد تاجر.

لم أستطع أن أجعلها تكف عن البكاء، ركعت مريم ورفعت علامة الصليب وناشدت ربها بصوت عالٍ:

ــ يا يسوع كن معي.

ــ أأدعوا معك؟

ــ هل أنت مسيحية؟

ــ لا بل أنا إيزيدية.

انزعت مريم وصرخت:

ــ فليرحمني الرب ألا يكفي مصيبة الأسر؟

ــ ماذا حدث؟

ــ وضعوك معي.

لم أرد عليها، ولم أسألها، ولكنها لمحت السؤال في عيوني بعينيها، فردت مريم بوقاحة:

ــ ألا تدرين كم أشمئز منك.

ــ لماذا؟

صرخت مريم في وجهي:

ــ لأنك لأنك لأنك..

ــ لأني كافرة نجسة؟

لم ترد، تألمت جدًا ولم أتكلم من كرهي لهذه الكلمتين، لململت نفسي واتجهت إلى السرير. فتح الباب، دخل إفرايم ابن إيزاك ومساعده، رجل في الثلاثينيات من عمره، نحيف، رسم على وجهه ابتسامة بلهاء، لا يبدو عليه الذكاء مثل أبيه، له لحية خفيفة بدون شارب، يضع علي رأسه طاقية اليهود الشهيرة.

وضع إفرايم صينية الطعام على المنضدة قائلًا:

ــ العشاء يا فتيات.

ــ ما هذا؟

صرخت مريم عندما رأت صينية واحدة بها خضار ولحمة وأرز وسلطة.

دهش إفرايم ولم يتكلم فبادرت مريم بالإجابة صارخة:

ــ صينية واحدة؟

ــ وما في ذلك؟

ــ لا أستطيع أن آكل معها.

أشارت بيدها إليَّ، نظرت لها ولم أتكلم، نزلت من على السرير، اتجهت إلى الصينية الموضوعة على المنضدة، نظرت إلى السماء داعية:

ــ أشكرك أيها الملاك الأكبر طاووس بك على نعمة الطعام

بدأت آكل متجاهلة مريم، تسمر إفرايم مكانه، رأيت محاولته أن يتمالك نفسه أمام نظرات مريم:

- كلي لأنه لا يوجد طعام آخر، لا توجد صواني إضافية.

ذهبت مريم على السرير، لا تدري ماذا تفعل؟ تتابعني بعينها وأنا أستلذ الطعام، كما تتابع إفرايم الذي أغلق الباب وتركنا وانصرف. أكملت نصف الصينية، تجنبت الخس فهو محرم في ديني، لا أدري لماذا؟ أعرف الإجابة ولكني لم أقتنع بها، ذهبت إلى سريري ولم أتكلم، بعد ساعة دخل إفرايم ليطلب منا دخول الحمام، لأنه سوف ينام بعد ذلك، رأي نصف الصينية ممتلئة أخذها ولم يتكلم، خرجنا دون كلام، ذهبنا إلى حمامين متجاورين، تأكدت أن المبني مدرسة قديمة لأن الحمام كان يشبه حمام مدرستي، قذر جدًا وضيق جدًا بعد أن أنهيت حمامي، جاءتني فكرة خبيثة، سأؤدب هذه الفتاة، قلت بصوت عالٍ حتى تسمع مريم الموجودة في الحمام الآخر:

ــ يا إبليس العظيم.

ثم تمتمت بلغة كردية غير مفهومة لها وأطلت في كلامي، ثم ختمت باللغة العربية:

ـ اسخط يا مولاي الكافرة مريم إلى صرصار حتى أسحقها بقدمي.

سمعت صراخ مريم في الحمام، جاء إفرايم مسرعًا، كنت قد عدت إلى الغرفة، ترجته مريم أن ينقلها من هذه الغرفة، رفض إفرايم وأعادها بالقوة، نمت سعيدة، فقد رددت الإهانة دون عقاب، ولم تستطع مريم النوم خوفًا من سحري كشيطانة، كان هذا أول انتصار لي حتى وإن كان نصرًا صغيرًا علي شخصية ضعيفة أسيرة مثلي، أردت أن أزيدها رعبًا فصليت وعوت دعاء غروب الشمس:

ـ يا فارس شروق الشمس وفارس مغاربها
بحق الأم وابنتها
أنقذونا من البلاء والمصائب والغلاء
أيها الشيخ شمس اسأل عن وضع عائلاتكم ووضعنا
هذه
المرة.
بحق العرش والكرسي
وبحق الثور والسمكة، وآية الكرسي
بحق اللوح والقلم، حواء وآدم
عيسي ابن مريم، أيها الشيخ اسأل عن وضع عائلتكم

ووضعنا في جميع الأوقات.

بحق الذرة الصفراء التراب والماء والهواء والنار، الأرض والسماء والحجر

إيزدين أمير والأسرار الأربعة

أيها الشيخ شمس لبوا مناجاة عائلتكم ومناجاتنا.

رأيت الهلع في وجه مريم، كم أنا شريرة، إذا بي استقوي علي مخلوقة بائسة مثلها.

- 3 -

لم أستمتع بالنوم كثيرًا، أيقظتني نوبا بحجة الصلاة، ولكنني أعرفها، تريد أن تقص علي ما حدث بينها وبين خادمات نساء فواز، استمهلتها حتى أدخل الحمام، بللت وجهي ويديّ ورجلي بالماء وكأنني توضأت، انتظرتني بالمنشفة، قصت لي إعجاب الخادمات بما قلته ودعائهم لي، وكيف اغتاظ ضرائري، سألتها:

ــ هل رأيت أحدًا منهن؟

ــ نعم سيدتي رأيت أم محمد هي الوحيدة التي سعدت برفضك عرض سيدي فواز.

كانت أم محمد أربعينية، بيضاء جميلة، وجهها صارم وإن كانت تحمل قلبًا طيبًا، وفي خدها شامة تزيدها جمالًا، اسمها آمنة وهي أولى زوجات الشيخ فواز وابنة عمه.

ارتديت إسدال الصلاة، وذهبت إلي شقة آمنة، كانت النسوة مجتمعات في الصالون، صالون أم محمد أوسع من صالوني، ولكن

أثاثه أقدم، دهشن لرؤيتي، بادرتني أم محمد:

ــ كنا سنذهب لديك للصلاة.

ــ أهلًا بكم وسهلًا.

نظرت لي أم مقرن وأم فواز بغيظ، أم مقرن هي الزوجة الثانية واسمها زبيدة ثلاثينية، في عينيها مكر، متوسطة الجمال، قمحية اللون، أما أم فواز فهي ثالث الزوجات علية لم تكن تحوز من الجمال سوي أنها بيضاء البشرة، في الثلاثينات أيضًا، بادرتني زبيدة:

ــ لقد أمرنا الشيخ فواز بالصلاة عندك وخلفك.

ــ سمعًا وطاعة لأوامر سيدي ولكني اعتدت أن أصلي خلف أم محمد، فالعين لا تعلو علي الحاجب أبدًا.

ــ ولكن!

أشارت أم محمد إلي زبيدة بالصمت، احتضنتني:

ــ إنك امرأة أصيلة، لا عجب أن يهيم الشيخ بك حبًا.

نظرن لي زبيدة وعلية شررًا، أنهين الصلاة، طلبت من أم محمد درسها المعتاد، طلبت مني زبيدة أن أعطي أنا الدرس، اعترضنها:

وهل لي علم أم محمد، وأنا حديثة العهد بالإسلام.

تهلل وجه أم محمد فقد حفظت لها مكانتها، وخلصت نفسي من عبء القيادة خصوصًا في أمور الدين، شرحت لنا آمنة الإيثار، وكيف أن هذا خلق إسلامي أصيل، ذكرت قصة الشهداء الذين

رفضوا تناول الماء، كل واحد منهم يريد ألا يسبق إخوته:

ــ كان اسمهم الحارث بن هشام، عكرمة بن أبى جهل، عياش بن ربيعة وكان معهم أربعة آخـرون، كانوا جرحي في معركة اليرموك، كلهم كانوا عطشي، لكن كل واحد أصر أن أخاه يشرب قبله، واستشهدوا جميعًا.

وأضافت:

ــ هذا اسمه الإيثار وهذا ما فعلته بنتا سدرا.

احمر وجهي خجلًا، رأيت السعادة علي وجه خادمتي وكأنها هي الفاعلة، دعتنا أم محمد إلي المحبة وإلي صفاء القلوب، وقالت: »الغل لا يقتل إلا صاحبه«، صدقت هذه المرأة.

هل يقتلني الغل؟ ولكن غلي أكبر من غلهن، ولكن أنا ضحية، لا ذنب لي فيما حدث، لم أختَّر فواز زوجًا، ولا جئت لهذه الأرض برغبتي.

عدت إلي حجرتي، أدرت الكمبيوتر أبحث عن الأخيار، الحرب مازالت مستعرة، تدخلت روسيا وتركيا في ضرب أهلي، بعد فشل جنيف 3، لا أمل في أي حل.

تذكرت شقيقيَّ، كان شقيقي الأصغر مراد يتهيأ للزواج بعد أن خطف عروسه، مازالت عادة خطف العروس موجودة في قريتنا، لذلك أعطاني أبي مدية لأدافع عن نفسي، كان يريد لي أن أكمل

تعليمي لأحصل على أعلي الشهادات تعويضًا له عن فشل إخوتي في إكمال التعليم، ورغبة منه في إكمال ما لم يستطع هو أن يكمله بسبب الفقر والجهل. كان والدي غاضبًا من أسلوب زواج ولده وخطفه لعروسه، ردت عليه أمي ببلاهة:

ــ ألم تخطفني؟

ــ الزمن غير الزمن.

ــ ألم يخطف باسل عروسه.

أتاح لي كمبيوتر أبي معرفة الكثير، قرأت في الأديان، وتاريخ الشعوب، بحثت عن سؤالي الدائم وأنا طفلة »لماذا أنا كافرة ونجسة« فلم أجد إجابة، ورغم بطء النت في قريتي إلا أنني تواصلت مع مواقع إسلامية ومسيحية حول كفري ونجاستي.

لم يكن أبي راضيًا علي حافظ وبشار الأسد، كان دائم النقمة عليهما دون أن يصب اللعنات فاللعن في ديننا ممنوع، وكانت والدتي تري التسامح الديني الذي يعطيه النظام مبررًا كافيًا لدرء أي سيئات أخري، كانت تقول لأبي في كل نقاش:

ــ يكفي الأمان الذي وفره السيد الرئيس وأيضًا الاستقرار.

لم تشارك جماعتي في المظاهرات ضد بشار الأسد، كمل حاجة تانية هنا. دهشت من أخبار المظاهرات في تونس ومصر واليمن، سألت أبي ذات يوم بعد مشاهدة المتظاهرين في التحرير يهتفون:

»عيش، حرية، كرامة إنسانية«:

ـ ماذا تعني كلمة حرية بالنسبة لهؤلاء؟

لم يستطع الأب الإجابة فهو مثلي لا يعرفها بل حتى لا يستطيع أن يحلم بها، ولا والدتي التي ارتعبت من الكلمة وكأنني لعنت أحدًا ونهرتني أن أكررها، الآن فهمت لماذا ارتعبت والدتي من كلمة الحرية، إنها الفوضى وانعدام الأمن اللذين كلفا أسرتي حياتها. ولكن في أوروبا وأمريكا أسمع من خطابات أقاربي المهاجرين حين يقصها أبي على أمي أن هناك حرية، فهم يعيشون دون خوف، يعلنون عن أنفسهم ودينهم دون مواربة، والأهم أنهم يصاحبون أهل البلاد من المسيحيين وغيرهم من المهاجرين المسلمين، هكذا حكي والدي لوالدتي عن أقاربنا مينا وفلك وعدي.

عدت من شرودي لأتابع تطورات ثورات الربيع العربي في الأخبار علي الجهاز الذي أحضره لي فواز بصعوبة بعد أن نلت رضاه، في مصر عاد العسكر إلي الحكم، وفي تونس ازداد الإرهاب وازداد الظلم الاجتماعي وعادت وجوه الحزب القديم أيضًا للحكم، وفي اليمن قامت حرب أهلية، أما بلدي فتمزقت وضاعت.

دخلت عليّ نوبا وسألتني إن كنت أريد الغذاء، طلبت قهوة عربي والتي يبدو أني أدمنتها. في دير خامنئك قريتي، لم أكن أشرب أي مشروبات، ليتني أستطيع العودة إلي قريتي وبيتي.

وأنا أرتشف فنجان القهوة تذكرت كم كنت متفوقة على أقراني من الفتيان والفتيات، فقد غرس أبي فيَّ حب العلم والقراءة، كنت أقرأ كالراشدين كل الكتب المتاحة لي، حتى ولو لم يتناسب مع سني حسب وجهة نظر أمي.

قرأت المزيد عن الأميرة ميان خاتون حين أحضر والدي الجهاز لي، المرأة الوحيدة الناجحة في التاريخ الإيزيدي القديم كانت جدتي قد قصت عليَّ بعضًا من أخبارها وأنا طفلة، أحلم أن أكون مثلها، لن أكون أميرة، ولن أفعل مثل ميان وأجبر شيوخ القبيلة علي بقبول ولدي أميرًا تحت وصايتي، فأنا لست من أسرة الإمارة بل أنا من طبقة المريدين أدني طبقة في الإيزيدية، يقولون إن هذا تقسيم إلهي!! أدهش تمامًا من التقسيم الاجتماعي لطائفتي، لا أقبله الآن، لم أجد تعليلًا لهذه الطبقية لا في النت ولا عند أسرتي، أبي أيضًا ناقم علي هذه التقسيمات، كان يحب امرأة من غير طبقته، فأمره جده بخطف أمي وتزوجها.

لكني أريد أن أصبح في مثل نجاح الأميرة ميان، أنجح وأتفوق في دراستي وعملي، هل يقاوم والدي الضغوط ويتركني أعمل، لا أدري، حلمت بالهجرة حتى أتخلص من القهر المركب بمجتمعنا، العرب يقهرون الأكراد قي سوريا وأيضًا في العراق، والعرب والأكراد يقهرون طائفتي، وطائفتي تقهر طبقتي، والكل يقهرون

المرأة.

أطفأت الجهاز.

تناولت سريعًا الغذاء الذي أعدته نوبا، تمددت لأرتاح قليلًا قبل العصر، ما بال هؤلاء المسلمين بين كل صلاة صلاة؟ ولكني أتحمل حتى أجد مخرجًا.

تقلبت علي السرير، تذكرت صورة إفرايم وهو يحمل صينية الطعام لي ولمريم في يومنا الثاني في مبني المجاهدين، كان في الصينية إفطار من جبن وزيتون وبيض، سألته بلهفة:

ــ ممكن أسالك سؤالًا؟

ــ تفضلي.

ــ هل يوجد من النساء امرأة اسمها نركز.

ــ لا يوجد لدينا نساء كلهن فتيات، هل هي شابة؟

ــ نعم، هي زوجة أخي، بيضاء وجميلة وفي العشرين من عمرها.

ــ أكيد احتفظ بها المطوعون أو ربما قتلوها.

ــ خطيبة أخي الأصغر وهي مازالت فتاة.

ــ ما اسمها؟

ــ اسمها كولي أيضًا.

ــ لا توجد كولي سواك.

بكيت، كنت أتمني أن أطمئن على نركز وكولي، رقت لي مريم

لأول مرة وكانت قد استيقظت على صوت المحادثة، ودهشت من بكائي سألتني:

ــ هل تبكين؟

ــ نعم فأنا إنسانة مثلك ولست شيطانة.

ــ صمتت مريم، ربما أحست بوخزة في ضميرها، عاملها المطوعون على أنها سبي حرب لأنها كافرة، والآن هي تتعامل معي على أني كافرة، أحسست بما يدور في خاطر مريم، كفكفت دموعي، طلبت من مريم النزول من السرير لتناول الإفطار، ترددت مريم، ففاجأتها بقولي:

ــ تقدمي ولا تخافي لن أحولك إلى صرصار.

دهشت مريم من جرأتي، اعتذرت لها:

ــ فقط كنت أريد أن أرد أهانتك سامحيني.

ــ هل بإمكانك تحويل الأشخاص إلى أشياء أخرى؟

ضحكت كثيرًا:

ــ كنت حولت هؤلاء القتلة. والآن تقدمي فأنا جائعة.

ــ ماذا تعني كولي؟

ــ الوردة.

ــ ونركز؟

ــ النرجس.

ــ تتسمون بأسماء الزهور؟

ــ هي عادة في ديننا.

تناولنا سويًا الطعام، أحست مريم براحة، شعرت أخيرًا بإنسانيتي، سألتني:

ــ ممكن أسألك من غير غضب؟

رددت بسرعة وسط دهشة مريم:

ــ نحن لا نعبد الشيطان، وأفضل أن لا نتكلم في الأديان حتى لا نغضب من بعض.

ظهر السرور علي وجه إفرايم حينما دخل ووجد الصينية فارغة ونحن نتبادل الحديث، دخلنا الحمام وعدنا، سألت مريم إفرايم في طريق العودة إلي الحجرة:

ــ متى نرحل وإلى أين؟

ــ فجر غد وإلى تركيا.

في المساء، بعد العشاء ورحلة الحمام، طلب منا إفرايم النوم مبكرًا، لم نستطع النوم، جلسنا للنقاش، سألتني مريم:

ــ معذرة في سؤالي من تعبدون؟

ابتسمت كولي، وأجابت بثقة:

ــ الله اسمه لدينا يزدان العظيم.

ــ وإبليس؟

ــ إنه الملاك الأعظم طاووس بك.

ــ لا أفهم.

ــ لا أريد أن أتحدث في الأديان.

ــ من أجل خاطري فكلانا لا يستطيع النوم وغدًا لا ندري أنلتقي مرة أخري أم لا؟

ــ الله يمتحن مخلوقاته فلقد امتحن إبراهيم بذبح ابنه وبحرقه في النار فوجده صابرًا مطيعًا.

ــ أكملي.

ــ وامتحن الله الملائكة في السجود لآدم ففشلوا في الامتحان إلا الملاك الأعظم الذي تذكر أمر الله الأزلي بعدم الشرك والسجود لذاته فقط.

ــ كلام فارغ.

تداركت مريم الموقف واعتذرت، ولكني واصلت:

ــ وهل نزول الله على هيئة إنسان وتعذيبه على الصليب كلام ليس فارغًا؟ أي إله هذا الذي يتلذذ بالعذاب؟

بهت وجه مريم ولم تستطع الرد، اعتذرت لها عن كلامي:

ــ قلت لك لا داعي للحديث في المعتقدات.

ــ معك حق.

ــ لي سؤال واحد فقط.

ــ تفضلي.

ــ أنت من يتبع القائلين إن ناسوته لم يفارق لاهوته، وإن السيد المسيح طبيعة واحدة وليست طبيعتين أم العكس؟

ــ أنا من السريان الأرثوذكس.

ــ طبيعة واحدة، ناسوته لم يفارق لاهوته ولا طرفة عين.

سألتني مريم والدهشة علي وجهها وسألتها:

ــ من أين لك بهذه المعرفة؟

ــ لقد قرأت العهد الجديد والقديم، بل والقرآن أيضًا.

ــ ما اسم كتابكم المقدس؟

ــ يقال إنهما الجلوة ومصحف رش، والآن نامي ولا تسألي.

ــ لا أستطيع النوم، كيف يقال؟

ــ لا يوجد نسخ معترف بها.

ــ هل سنستقر في تركيا؟

ــ لا أدري ولكني أعتقد أن الإقامة في تركيا مؤقتة حتى يجدوا من يشترينا.

ــ أخشي أن يبيعوننا لعرب الخليج.

ــ وهل يوجد غيرهم من يشتري النساء؟

قلتها وأنا أضحك من سذاجة مريم. من لديه النقود في العالم العربي غير عرب الخليج؟.

ـ ألست خائفة؟

ـ بالطبع.

ـ عرب الخليج يعاملون النساء أسوأ معاملة.

ـ مثل غيرهم في دول العالم الثالث.

ـ إنهم يضربوهن بالكرباج.

ـ لا تصدقي كل ما يقال فهم أولًا وأخيرًا بشر مثلنا.

ـ ولكنهم مسلمون.

ـ وما المشكلة؟ أخلاق الإنسان لا تتحدد بدينه، انظري لإيزاك يهودي تركي ويتعاون مع مسلم عربي متشدد.

اطمأنت مريم لوجودي معها، اطمأنت بمعرفتي الكثير عن البشر، فلست مثلها، حكت لي قصتها، كانت من قرية قريبة من قريتي، فقيرة مثلي، تنتمي إلي أقلية ولكنها ليست أقلية منبوذة مثل طائفتي، تذكرني مريم بإحدي مدرساتي وكان اسمها مريم أيضًا مسيحية، كانت متعصبة، تظهر للإيزيدات الاشمئزاز، ولسوء حظها كنت متفوقة، ولسوء حظها لاحظ مدير المدرسة الحزبي معاملتها السيئة لنا، فأبلغ السلطات عنها، فتاهت فترة في ظلمات سجون حزب البحث وعند عودتها كانت تقبلني وتعطيني الحلوى. لنظام البعث بعض الحسنات.

ولكن مريم زميلتي في الأسر لم تهتم بالتعليم، كان اهتمامها الأول

والأخير متى يأتي حبيب القلب الذي سترتبط به رباطًا أبديًا، حكت لي عن الشاب يوسف الذي كان يحبها ولم تهتم لأمره، لم تكن تريد زوجًا من القرية، بل ليس من يقبع في سوريا، تحلم أيضًا مثلي بالسفر إلى الخارج، إلى أمريكا مع زوج ثري، تجوب معه في أنحاء العالم، وتهرب من بؤس قريتها، تري أن هذا حقها فلا ينقصها الجمال، ابتسمت وسألتها:

ــ تري أين أراضي يوسف الآن؟ هل قتله المسلمون؟ أو أنه استطاع الهرب؟

كسا وجه مريم الحزن كثيرًا من كلامي عن قتل يوسف فهي وإن كانت لا تحبه إلا أنه لا توجد امرأة في الدنيا تكره رجل يحبها ويشعرها بأنوثتها. استسلمنا لقدرنا ونمنا مترقبين قدوم الغد وما يحمله من أخبار وأحداث.

وكالعادة أيقظتني نوبا من أحلامي لصلاة العصر.

- 4 -

لم يجد جديد في صلاتي العصر والمغرب، هنا تؤرخ الأحداث اليومية بصلاة المسلمين. وبعد صلاة العشاء، دخل علينا فواز، وقفنا طابورًا لتقبيل يده، قدمت أم محمد، وأخرت نفسي. ورضي فواز بتغيير قراره. تعمدت أن أفك أزرار الإسدال حتى يظهر ثدياي من قميصي الداخلي الأسود الذي يفضله فواز، تعمد أن يلامس صدري، ابتسمت وغمزت له بطرف عيني، عدت إلي وقاري بعدها أمام الضرائر. طلب فواز من أم محمد أن تبلغهن بالجدول الجديد، الخميس والسبت لي وكل واحدة لها يوم، ويوم راحة للشيخ، ويوم الجمعة لاثنين من النساء بالتناوب، اللئيم اختار لي أيام إجازاته، كما وضعني مع أم محمد في يوم الجمعة، يعلم أنها ستكتفي بالقليل وستترك باقي اليوم لي أو بالأصح له، تدينها وحبها له يجعلها تقبل ذلك، تضررت باقي الزوجات. اليوم يوم علية، ذهبت مع فواز، غادرت زبيدة أيضًا، بقيت مع أم محمد:

ــ هل يمكن أن أتحدث معك يا أختي.
ــ تفضلي تعلمين أنني أعتبرك ابنتي.
ــ أختك الصغيرة.
ــ لا، ابنتي، فمحمد أكبر منك بعامين.
ــ كيف حاله وحال زوجته؟
ــ الحمد لله، تفضلي ماذا عندك؟
ــ لا أدري، يومان لي سيجعل زبيدة وعلية غاضبتين مني.
ــ وهل أنت من قرر؟
ــ لا ولكنهن لن يغضبن من الشيخ.
ــ معك حق، ولكن أبو محمد معذور فأنت جميلة.
احمر وجهي خجلًا، واصلت أم محمد كلامها.
ــ خجلك يجعلك أكثر جمالًا.
ــ شكرًا، ولكن...
ــ سأتكلم معهما، أن فواز هو من قرر. نعم إنك جميلة ولكني سأقول لهما أنك مازلت جديدة عليه وهو لم يشبع منك بعد.
ــ شكرًا بارك الله فيك وفي أولادك.
ابتسمت أم محمد، اتجهت ناحية الباب، نادتني:
ــ أشكرك علي حفظك لمكانتي.
عدت، قبلت يدها، احتضنتني:

ـ لست جميلة فقط، بل وأصيلة ومؤدبة أيضًا

دمعت عيني، أحب هذه المرأة، الوحيدة ـ بجانب نوبا ـ التي وقفت معي، بها الكثير من حنان أمي وأبي.

عدت مع نوبا المندهشة من أفعالي، لن تفهم إجلالي لضرتي أم محمد واحترامي الزائد لها. المرء يحتاج إلي الناس حتى ولو كان في منتهي القوة، أم محمد ونوبا، يشعراني أن هناك أملًا في هذه الدنيا.

تقلبت علي السرير وكالعادة عاودني حديث الذكريات.

مريم أين أنت يا مريم تراك أقريبة أم بعيدة؟

تذكرت رحلتنا الشاقة إلى تركيا، سافرنا بأتوبيس أمامه عربتان مسلحتان تركتنا السيارتان بعد اجتيازنا القامشلي على الحدود السورية التركية. تفاهم إفرايم مع جنود الحدود الأتراك بالنقود ـ العملة الوحيدة للتفاهم ـ بالإضافة إلى أنهم كانوا يعرفونه جيدًا، بل كانوا ينتظرونه فلقد سمعت أحدهم يقول له:

ـ لقد تأخرت.

إذن لديهم خبر بمجيئه اليوم، وصلنا إلي نصبين، ثم شقت السيارة طريقها نحو أكثر من سبعمائة كيلو متر لتصل إلى أزمير، لم نسترح إلا مرات قليلة، قضينا فيهما حاجتنا فقط دون أن نتزود بطعام أو شراب.

كنا ثلاثين فتاة ما بين الرابعة عشرة والخامسة والعشرين من

العمر. جلست مريم بجواري، تبادلنا الآراء في وضعنا، ماذا سنفعل في تركيا؟ وكم سنمكث؟ طمأنت مريم:

ــ دعيها على الله.

ــ أو تعرفين الله يا كولي.

ــ اسمه عندنا يزدان العظيم، ولكننا تعودنا علي اسم الله من جيرة المسلمين والمسيحيين لنا.

أخيرًا وصلنا مبني متوسط الحجم، لا هو بالقصر ولا بالفيلا، كان إيزاك في استقبالنا، حراس كثيرون على البوابة، يحملون مدافع سريعة الطلقات، معهم كلاب ضخمة شرسة، تساءلت لماذا كل هذا؟ هل نحن في معتقل كالتي كان أبي يحكي عنها في حديثه عن سجون الأسد؟ حضرت فتاة سوداء نحيفة ذات شعر أسود خشن مجعد في سيارة بمفردها، طلب منا إيزاك الراحة الليلة وخير فعل فقد كنا مجهدات جدًا، سيجتمع بنا صباحًا، كان المبني مليء بالغرف، وكأنه فندق، قديم ولكنه نظيف، ملحقة به حديقة بها زهور وورود، فرحت جدًا بالحديقة، فأنا أحب الأزهار، خاصة النرجس والياسمين، حذرنا إيزاك قبل أن يوزعنا على الغرف:

ــ من ستحاول الهروب ستعرض نفسها للموت، فالمبني محاط بحراس شداد وكلاب شرسة. سوف نرسل لكن الطعام في الغرف.

كانت الغرف واسعة، ثلاثية الأسرة، وبها منضدة الطعام كبيرة،

ومبرد للمياه، الغرفة مليئة بالآيات القرآنية، أسرة النوم مريحة. وفي كل غرفة حمام منفصل به حوض استحمام.

وضعوني مع مريم في غرفة واحدة، ثم أتوا بالفتاة السوداء، رحبت بها:

ـ أنا كولي وهذه مريم من سوريا.

ردت ولا تزال أمارات الخوف بادية على وجهها:

ـ خديجة من دارفور.

ـ سودانية؟

ـ نعم.

ـ كيف وقعت في هذا الشرك؟

ـ هذه قصة طويلة ياكولي.

قصت علينا كيف هجم عساكر الجنجويد على قريتهم ـ ضلاية التي تقع غرب مدينة نيالا في دارفور ـ هؤلاء الجنود يقتلون بوحشية ويغتصبون أي أنثى مهما كان عمرها، استطاعت خديجة أن تهرب هي وشقيقها قبل الهجوم، ولكنهم وقعوا في أيدي عصابات الاتجار بالبشر، باعتهم العصابات السودانية إلى العصابات المصرية في سيناء، سألتها:

ـ كيف؟

ـ أفهمونا أننا سنرحل إلى إسرائيل ومنها إلى أوروبا وقبضوا

الثمن منا.

ــ ثم؟

ــ قبضوا الثمن مرة أخري من البدو المصريين ونحن لا ندري.

ــ أكملي من فضلك.

قصت كيف جاءت عربة إسعاف مجهزة، قتلوا فيها أخاها بعد أن نزعوا أعضاءه الضرورية والتي يحتاجها الأغنياء من العرب والأجانب، ولحسن حظها لمحها سمسار متعاون مع إيزاك وطلب الإبقاء عليها حية، حيث أخبره إيزاك أن عربيًا من الخليج يريد فتاة بكرًا سوداء، ساوم السمسار زعيم البدو:

ــ هذه ليست جميلة حتى تطلب هذا الثمن.

ــ لو بعناها أعضاء سنكسب أكثر ولكني استبقيتها إكرامًا لخاطرك.

ــ إذا أنزل ثمنها حتى أستطيع أن يكون لي رزق فيها أنت لا تدري لمن سأبيعها.

ــ لمن؟

ــ إيزاك اليهودي التركي وهو رجل بخيل.

ــ أعوذ بالله، من أجلك فقط سنخفض الثمن.

ــ بارك الله فيك، بارك الله فيك.

لم تصدق مريم القصة، وتساءلت:

ـ ما هذا الذي يحدث؟ أعدنا إلى القرون القديمة؟

شرحت لها كيف أن إنسان العالم الثالث لا قيمة له في بلده، لذلك يتعامل معه الجميع باستهانة، كما أن الحروب تزيد من سعار البشر، اعترضت مريم:

ـ ليس لهذه الدرجة.

ـ انظري إلينا مريم، هل كانت لنا قيمة أيام حافظ الأسد؟

ـ ولا أيام بشار.

ـ إذا كيف تتوقعين أن تتغير المعاملة مع المتطرفين.

ـ معك حق.

ـ وأختنا خديجة بالمثل لم يكن لها ولا لأهلها قيمة أيام جعفر نميري، ولا أيام الأحزاب، ولا أيام الترابي، والآن أيام البشير، طبيعي ألا تعامل كبشر.

سألتني خديجة بدهشة:

ـ أتعرفين تاريخنا جيدًا يا كولي وأنت في هذا العمر.

ـ كولي ليست مثلي هي مثقفة.

سمعنا طرق ًاعلى الباب، دخلت امرأة أربعينية، بيضاء، ممتلئة الجسد، تغطي شعرها بطرحة، مع أن ذراعيها عاريتان وممتلئتان بالأساور الذهبية، معها رجل قمحي اللون، عرفت نفسها بأنها السيدة حكمت المشرفة علينا، وبأن الرجل يدعى أوغلو وأنه مسئول

إحضار الطعام، لم ينظر أوغلو إلينا ولم يطالع وجوهنا، ولكنه كان دائم النظر إلى حكمت، كان شابًا طويلًا يبدو عليه شيء من البله، كانت حكمت تتكلم العربية بلكنة تركية، أما أوغلو فلم يتحدث قط، كان يدفع عربة بعجلات مثل عربات الطعام في الطائرات، أعطى لكل منا صينية، أمرتنا حكمت قبل أن تخرج:

ـ تناولن الطعام ونمن لا داعي للثرثرة.

وضعت مريم ما في الصواني الثلاث في صينية واحدة:

ـ فلنأكل سويًا وليباركنا الرب.

ابتسمت لي مريم، فرددت لها مثلها، أصرت خديجة أن تعرف السبب، قصصنا عليها ما حدث أول ليلة لنا معًا، سألتها والقلق علي وجهي:

ـ أم تراكِ لا تأكلين مع الكفرة؟

ابتسمت قائلة:

ـ وماذا فعل بي المؤمنون؟

نمنا نومًا عميقًا، أيقظنا إيزاك عند الظهيرة، خيرًا فعل إنه لم يوقظنا في الصباح، فهو بالتأكيد يعلم مشقة الرحلة، سمعت أنه ارتاح يومين بعد هذه الرحلة من قبل وكانت عيناه أثناء الرحلة تنطق بالاستعجال وتقول لنا: «أسرعن حتى لا أتكلف مصاريف إضافية».

كلنا فتيات صغار السن، يمكننا تحمل مشاق السفر، لذلك قمنا وكلنا نشاط وحيوية.

جمعنا إيزاك بعد إفطارنا في قاعة، قاعة في الطابق الأول بجوار المدخل،القاعة فسيحة ومنيرة بها ثلاث نوافذ تسمح لنور الشمس بالتسلسل بالرغم من الشباك الحديدية التي تؤطرها وتجعلها تبدو كحواجز السجون، جلسنا على الكراسي المريحة ذات المساند التي تتوسط الغرفة، ووقف هو أمامنا ساندًا يده علي منضدة.

جلست بين مريم وخديجة في أول صف، رحب بنا من خلال الميكرفون:

ــ أريد أن أطمئنكن، لقد حررناكن من المتطرفين، أنتن ضيوفي هنا إلى أن يشاء الله.

ــ أنت سوف تبيعنا.

جاء ذلك اعتراض واحدة من الفتيات خلفي، قالتها والخوف يفيض من عينيها، ابتسم إيزاك مُطمئنًا:

ــ لا لن أبيعكن، فالنخاسة غير قانونية في القرن الحادي والعشرين. كما قلت لكن أنتن ضيوفي إلى أن يتم تزويجكن، ولن أكذب عليكن، سوف أقبض عمولة من تزويجكن حتى أتمكن من تحرير أخريات مثلكن.

رفعت خديجة يدها تستأذن في الحديث، كرهت أو خافت أن

تقاطعه، أشار لها بيده:

ــ أنا لم أكن في حوزة المتطرفين.

ــ أعلم ظروفك يا ابنتي، كان حالك أسوأ منهن، المتطرفون كانوا سيغتصبونهن ويتخذونهن سبايا، أما أنت فكان جسدك سيقطع كما قطع جسد أخيك للحصول على عينيك وكليتيك وأعضاء أخري.

ذرفت خديجة دمعة حين تذكرت أخاها، أمسكت بيدها وضغطت عليها لأقويها، وواصل إيزاك حديثه:

ــ من أجل تزويجكن يجب أن تدخلن الإسلام، لأن العريس مسلم، لذا ستبدأن دروسًا دينية من باكر حتى للمسلمات منكن ليتعلمن الدين الصحيح.

صمت إيزاك لحظة وواصل حديثه وهو يراقب ردود أفعالنا:

ــ أعلم أنكن ستندهشن، تعتقدن أني يهودي ولكني مسلم من أتباع الفرقة الشبائتية المعروفة لديكم باسم يهود الدونمة، أسلافي يهود نعم هذا لا يعيب فالإسلام يجُب ما قبله، نعم لنا فرقتنا الخاصة، لن أدعوكم إليها بل سأدعوكم إلى ما يعود عليكم بالنفع.

كنا في حالة ذهول من حديث إيزاك، لا نعلم أهو صادق أم كاذب مخادع؟ أمرنا بالذهاب مع حكمت لتوقيع الكشف الطبي علينا، دخلنا صالة كبيرة مكتوبة عليها يافطة (الملحق الطبي) كانت بهوًا واسعًا بها العديد من الكراسي الحديدية المتصلة، أجلستنا حكمت

علي هذه الكراسي، أعطت لكل واحدة منا حقيبة سفر قماش، أمرتنا بخلع ملابسنا كاملة، وأي حلي أو زينة، وأن نضع حاجياتنا في الحقيبة، ترددنا جميعًا، فصاحت بلهجة حازمة:

ــ انزعن ملابسكن وإلا سآتي بالحراس ينزعونها عنكن.

نزعنا ملابسنا في تردد، حاول بعض الفتيات استبقاء الملابس الداخلية، ولكن حكمت فتحت دولابًا في الحائط وأخرجت سوطًا، ضربته في الأرض، ثوانٍ معدودة كان كل الفتيات بلا ملابس كما ولدتنا أمهاتنا.

كانت مريم خجلي جدًا، تغطي صدرها بيدها، ولا تستطيع النظر إليَّ ولا إلي خديجة، ورغم خجلي أنا وخديجة إلا أننا تماسكنا، وتركنا أثداءنا للظهور بشموخ، ولم نهتم بعورتنا، فالأمر ليس بيدنا، كما أن صدري مازال صغيرًا، شعرت بخديجة وتعلوها ابتسامة سعادة وكأنها سعيدة بعريها.

أشارت لنا حكمت إلى غرفة عليها يافطة »طب عام« وإلى غرفة أخري مكتوب عليها »عيون« وثالثة مكتوب عليها »أسنان«، ورابعة مكتوب عليها »تحاليل«، وأخيرة مكتوب عليها »نساء«، وزعتنا على الغرف بالتساوي.

لاحظت خديجة وهي تتعمد أن تتأخر لحظة حتى تري مؤخرة مريم، ثم اختلست نظرة شرهة إلى نهديها، كنظرة معاون الأمير لي من

قبل، تزداد شراهة عيون خديجة حتى إن مريم ارتبكت عندما جلسنا ولاحظت متابعة خديجة لها في محاولة عينيها لاختراق صدرها.

لاحظت أيضًا عينا حكمت تلمع شهوة من منظر أثداء الفتيات وعجزهن، كانت حكمت تطيل النظر لمريم وإلي فتاة أخري سورية مسيحية اسمها نيفين لها نفس جسد مريم الجميل.

دخلنا مع أخريات إلى أول غرفة. كانت العيادات قديمة، ليس بها ما يميزها سوي أن الطبيب عجوز ومعه ممرضة شابة لا يعرفا من اللغة العربية إلا القليل، كشف علينا وتوالت الفحوصات، كان جميع الأطباء مثل الطبيب العام ذكورًا، وفي أعمار متقدمة. كان أسوأ كشف هو كشف النساء، ترددت مريم أن تفعل مثل خديجة وأن تجلس على سرير الفحص مع فتح أرجلها ولكنها فعلت في آخر الأمر، أما أنا فقد استسلمت لقدري.

بعد ذلك أمرتنا حكمت بالذهاب إلى صالة أخري ونحن عرايا:

ــ لا تخفن لا يوجد أحد يختلس النظرات إليكن.

خرجنا من الملحق الطبي ونحن عرايا، التصقت خديجة بمريم بخفة وكأنها لا تقصد الاحتكاك.

كانت حكمت غير صادقة، فلقد لمحت إفرايم يتلصص علينا، صرخت، فخاف وجري. أما أوغلو فكان يتلصص علينا من ركن منزوٍ، وقد بدأ في الاستمناء بيده دون أن يراه أحد، ولكنه نسي نفسه

فلمحته خديجة، كما قالت لي بعد ذلك، ودهشت جدًا من تركها له وعدم تنبيهنا ودهشت أكثر من تعليقها:

ـ تركته كي ينبسط.

غريبة أمر هذه الفتاة، أظهرت تعاطفًا مع أوغلوا بمنطق أغرب:

ـ يبدو أنه محروم.

دخلنا صالة أخري واسعة تشبه صالة الملحق الطبي ولكنها بدون كراسي، أمرتنا حكمت أن نضع الحقائب على الأرض، وأن تدخل كل عشر فتيات أحد حمامات الساونا الثلاثة، وأن تقوم كل فتاة بتنظيف زميلتها، أعطت لكل واحدة منهن ماكينة لنزع الشعر، وشددت على حلق الشعر الداخلي قبل دخول الحمام. سارعت خديجة بنزع شعر إبط مريم، ثم شعر عانتها. نزعت لي إحدي الفتيات شعري، كانت في مثل عمرنا وجمالنا، وإن كانت أطول مني، اخترتها لأنني سعدت باعتراضها على إيزاك في لقاء المدرج. اسمها عائشة، مسلمة سنية عربية كما عرفت من حديثي معها، منعها الخجل من النظر لأعضائي التناسلية فكادت أن تجرحني. لاحظت ابتسامة السعادة علي وجه خديجة، ابتسامة غريبة لم أفهمها في حينها وهي تزيل شعر العانة الخاص بمريم.

كانت حكمت تدخل كل غرفة للاطمئنان ولكني رأيت الشر والرغبة في عينيها، ما بال هذا العالم مليء بالشرور، كانت أمي دائمًا

ما تنصحني:

ـ الحياة غابة والبشر وحوش وعليك الحذر.

دخلت الفتيات الساونا، شعرت مريم بخديجة وهي تنظف جلدها وجسدها بنية غير صادقة، وتتعمد لمس أعضائها الحساسة كما أفصحت لنا فيما بعد، فنهرتها بصوت عالٍ تنبه إليه الفتيات:

ـ هذه قلة أدب.

ـ ماذا فعلت؟

لم تستطع مريم الإجابة على سؤال خديجة، ولكنها طلبت مني أن أنظفها بدلًا من خديجة، وافقت دون تردد فهذه ثقة سعدت بها. رأيت خديجة واقفة حائرة لا تدري ماذا تفعل، فقد رفضت عائشة التي كانت معي أن تضع جسدها تحت أيدي خديجة.

- 5 -

يا لحظي السعيد، أصابني البرد والسعال، رغم أن هذا مرض إلا أنه أسعدني، سوف لا أري فواز ولا أيًا من زوجاته، من عادتهم أن يتجنبوا المرضي حرصًا علي سلامتهم وسلامة أولادهم. كما أنني سأرتاح من الصلوات الجماعية، وبالطبع لن أصلي هنا في بيتي، سأمكث هذه الأيام بمفردي، شكرًا لك يا ملاكي الأعظم.

اغتم فواز حين أبلغته نوبا بخبري، وصفت لي نوبا كيف تغير وجهه، كما وصفت لي السعادة التي ظهرت علي وجهي زبيدة وعلية، فلتشبعا به.

خادمتي البلهاء تواسيني بسبب ضياع يومي، أبتسم من الغباء البشري، وأزهو أكثر بقدرتي علي التمثيل وإخفاء ما بداخلي، علمتني الدنيا الكثير.

سرحت وأنا علي جهاز الكمبيوتر، حين قرأت خبرًا عن تركيا، تذكرت الشيخ محمد، دق قلبي بعنف حين تذكرته، هل مازلت

أحبه؟ لا لا، كانت أوهام مراهقة، تذكرت أبلة حكمت، عاد خيالي إلي الماضي، ما زلت أتذكر كأنه حدث بالأمس، عاد بي الزمن إلي الغرفة في تركيا.

كانت مريم قابعة لوحدها تنظر بخوف من خديجة، حاولت أنا وخديجة الحديث معها حتى نزيل مخاوفها، تحدثت خديجة عن همجية الجنجويد، وعن الحرب الدائرة بين العرب والزرقا أو غير العرب، وعن دعم حكومة البشير للجنجويد. قدرت أنها تحاول استدرار مشاعر العطف بقص المآسي حتى تستعيد صداقة مريم وحتى لا تخسرني أنا أيضًا.

سألتني مريم عن طائفة الدونمة فهي لم تسمع بهم من قبل، أخبرتها عن «شبتاي زيفي» الذي أعلن نفسه المسيح، وعن أتباع اليهود له، ثم القبض عليه من قبل سلطات الخلافة الإسلامية، ثم إعلان إسلامه، وممارستهم عقائد خاصة أقرب لليهودية منها إلى الإسلام، سألتني مريم في براءة:

ــ من أين لك بهذه المعلومات؟

ــ أحب القراءة في الأديان والتاريخ من خلال النت.

ــ وقلبك؟

ــ لم ولن يدق.

ــ لماذا؟

ــ لأن هناك أمورًا أهم من الحب.

ــ ما هي؟

ــ الأمان والحرية.

تابعت خديجة نقاشنا دون أن تشارك فيه، نمنا بعد تناولنا للعشاء، سريري في منتصف سريري الفتاتين الأخريين، تسللت خديجة إلى سرير مريم، نامت بجوارها، حضنتها، حاولت أن تداعب ثدييها، استيقظت مريم فزعة، صرخت بأعلى صوت:

ــ أغيثوني.

سرعان ما حضرت حكمت ثم توالي حضور الفتيات، حاولت أن أهدأ مريم الباكية، خديجة جالسة على منضدة الطعام، قصت مريم ما حدث، أنكرت خديجة، عنفتها حكمت وأمرتها بالمغادرة، وأحضرت عائشة بدلًا منها.

ذاع الخبر صباح اليوم التالي، إنه الخبر الأساسي للهمس بين الفتيات، تجنب الجميع خديجة، عداي، أعلم أن خديجة أخطأت ولكنني أشعر أيضًا كيف يكون الإنسان منبوذًا من قبل الآخرين، طالما عانيت هذا الإحساس، فبالإضافة إلى ما اقترفته خديجة كانت هي السوداء الوحيدة، وكل الفتيات سوريات ما عداها، مما ضاعف عزلتها.

غضبت مريم مني:

ــ كيف تتحدثين مع هذه العاهرة.

ــ هل نعدمها؟

ــ وما فعلته؟

ــ أخطأت بالطبع ولكنها بشر.

ــ أنا لا أفهمك.

ــ ألم يقل المسيح «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر».

لم يكتمل النقاش، ذهبنا إلى القاعة، كان المحاضر الشيخ محمد حشمت، خفق قلبي حين رأيته، شرح لنا معنى الإسلام: التوحيد والعدالة بين البشر. فند من وجهة نظره المعتقدات الأخرى، فأفصح عن دراية بكافة الأديان السماوية. ضحد فكر يهوه الإله اليهودي، إله العنف والقتل كما قال، وسخر من مقولة شعب الله المختار. سخر أكثر من عقيدة التثليث، ومن عودة الإله على صورة بشر ليفدي بني الإنسان من خطيئة آدم. شعرت بمريم غاضبة من هذا الشرح، حاولت أن ترد عليه ولكن الخوف منعها. عند تعرضه السريع للديانة الإزيدية ذكر معتقدات خطأ من حيث نشأتها، فنسبها إلى يزيد بن معاوية، وأرجع نشأتها إلى لعن الشيعة يزيد، وأنها كانت حركة سياسية تهدف إلى إرجاع الأمويين إلى الحكم.

انتظرت الشيخ محمد بعد انتهاء، لا أدري لماذا انتظرته، هل لأرد عليه أو لأنه قد نال استحساني، فهو وإن كان في العقد الخامس من

العمر إلا أن به وسامة غير معتادة على رجال الدين كما أن ابتسامته ساحرة. يتحدث بثقة معتادة على رجال الدين، إلا أن أسلوبه في الحديث خلاب، انتظرت مريم معي بعد خروج الفتيات:

ــ بعد إذنك ممكن أتكلم مع حضرتك؟

ــ تفضلي يا ابنتي.

ــ أنا إيزيدية وسرد حضرتك للتاريخ الإيزيدي غير دقيق.

ــ كيف؟

شرحت له أن ديانتي من الديانات القديمة التي تسبق اليهودية، أعطيته أسماء مراجع دينية إيزيدة لقراءتها. رأيت لذه النقاش في عينيه يبدو أنه مختلف عن رجال الدين الذين لا يرحبون بالنقاش. يبدو أن الفتيات قبلي لم تحاول واحدة منهن أن تتفاهم معه أو تناقشه، ويبدو أنهن لم يعترضن عليه، بالتأكيد كانت هناك إيزيديات لماذا لم يناقشنه؟ لا أدري. سألني:

ــ اسمك إيه يا ابنتي؟

ــ كولي ومعناها بالعربي ورد.

منحني ابتسامة صافية، ويا لها من ابتسامة جعلتني أشرد، لاحظت مريم شرودي:

ــ أين ذهبت؟

انتبهت لها:

ــ هذا رجل دين غير تقليدي.

ــ ولكنه قال معلومات خطأ عن المسيحية.

ــ لماذا لم تناقشيه.

ــ خفت، بس واضح إنه قد أعجبك.

ــ ماذا تقصدين؟

ابتسمت مريم ولم ترد. ذهبنا إلى الغرفة لنجد عائشة قلقة وخائفة، خديجة معاها تنتظرنا، لا أدري أعائشة خائفة بسبب وجود خديجة أم بسبب تأخري أنا ومريم، قطبت مريم وجهها عندما دخلت الحجرة ورأت خديجة، التي بادرت مريم بالاعتذار عن فعلتها:

ــ لا أدري لماذا فعلت هذا؟ سامحيني.

ترددت مريم في قبول الاعتذار، ولكني ألححت عليها في الاستجابة لطلب خديجة، بينما وقفت عائشة مترددة، خافت مما فعلته خديجة، ولكنها مثلي أشفقت عليها، ظهر ذلك في محاولتها تهدئة مريم. أخيرًا تم لم الشمل، أحضرت خديجة صينية طعامها لتأكل معنا. حضرت حكمت بعد أن سمعت بحضور خديجة إلينا، ولكنها اطمأنت عندما رأتنا نحن الأربعة نأكل سويًا، قبل أن تمضي حكمت نظرت إلي مريم نظرة خاصة ثم أشعلت قلبي نارًا:

ــ الشيخ محمد معجب بحديثك وثقافتك.

نظرت إليها ولم أرد، فأكملت حديثها:

ــ كان يتحدث مع إيزاك الآن عنكِ.

نظرت مريم إليَّ نظرة ذات معني، ولكني تحاشيت نظرتها. أعطانا الشيخ محمد كتابًا عن الإسلام صادرًا من الهيئة الشرعية للدعوة الإسلامية من المملكة العربية السعودية، حتى عائشة وخديجة وباقي المسلمات تسلمن هذا الكتاب.

جلست على سريري لأقرأ، سرحت في الشيخ محمد، حلمت وأنا مستيقظة أنه زوجي، وأننا في سوريا، في بيت فسيح به كثير من الأولاد، يشكرني بعد تناول الطعام على حسن إعداده، ينام بجواري ويقبلني كالأزواج.

انتبهت فزعة على صوت مريم:

ــ كولي أنا لا أريد أن أقرأ هذا الهراء.

ــ ماذا حدث لماذا تصرخين؟

ــ لا أريد قراءة هذا الهراء.

ــ إذًا لا تقرئيه معذرة يا عائشة.

تنبهت مريم لوجود عائشة فاعتذرت لها. وعائشة من النوع المسالم الذي لا يريد عراكًا حتى ولو كان دفاعًا عن دينه فقبلت اعتذار مريم بهزة من رأسها.

أنبت نفسي لماذا أفكر في الشيخ. إنني لست له، حتى لو افترضت أنه يبادلني نفس المشاعر، فديني يمنعني من الزواج المختلط. ولكني

أعلم أنني سوف أتزوج مسلمًا، أو بالأحرى سيبيعونني لمسلم، ولكن هناك فرقًا، هكذا حدثت نفسي، سأتزوج شخصًا لا أعرفه، غير أن أتزوج شخصًا بإرادتي، شخص أحبه وأتخلى عن ديني من أجله، سألت نفسي: »هل يفكر في مثلما أفعل؟«.

طلبت من عائشة أن تساعدنى في فهم الكتاب حتى أتخلص من أحلام اليقظة، فرحت عائشة برغبتي في معرفة الإسلام، وسعدت أكثر بدور المعلمة، انضمت مريم إلى الاستماع للشرح، استمرت المذاكرة والشرح حتى موعد العشاء، كنت أقاوم رغبتي في أحلام اليقظة، جاءت أوامر حكمت مع الطعام:

ـ نامن مبكرًا لأنه من الغد سوف تحضر أستاذة الألعاب الرياضية.

ـ ومحاضرة الشيخ محمد؟

ـ بعد الألعاب يا كولي.

أعطتنا زيًا وحذاءً رياضيين، انضمت لنا خديجة، طلبت منهن مراجعة الكتاب، انتبهت جدًا في المراجعة حتى أكون مستعدة عند مناقشة الشيخ، خاصم النوم عيوني، داعبتني مريم:

ـ هل أنت مستيقظة يا كولي؟

ـ لا أنا نائمة.

ـ كيف وأنت تردين على؟

ــ أحاول أن أنام.

ــ وما يشغل بالك.

ــ حالنا.

لاحظت متابعة خديجة وحكمت لمريم بنظراتهما، زادت خديجة علي حكمت بمحاولة الغزل بكلام معسول، بينما اكتفت حكمت بالنظرات، شعرت مريم بهما وكانت كما قالت لي بعد ذلك سعيدة وخائفة، سعيدة بجمالها الذي أغري حتى النساء وخائفة منهما وخائفة من التجربة.

أيقظتني نوبا من سرحاني، خادمة أم محمد تستأذن لسيدتها في الزيارة، دهشت، يا تري ما السبب. أعلم أن أم محمد غير الأخريات فهي شديدة التدين، كنت أعتقد أنها لن تسلم عليّ، بسبب مرضي ونجاستي، كانت العادة الشهرية قد واتتني وضاعفت من آلام نزلة البرد ولكنني كنت سعيدة بخلوتي.

عجيب أمر هذه المرأة! تذكرني بالشيخ محمد، هي مثله، إيمانها يزيد من حسن أخلاقها، على عكس باقي المتدينين. فلأنتظر حتى تأتي لأري وأسمع.

- 6 -

آه من النساء ومن كيدهن، لقد بعثها فواز لتتأكد من مرضي. رأت شحوب وجهي فبهتت، ثم لمست بيدها جبهتي فعرفت أن السخونة اشتدت عليَّ، اعتذرت لي كثيرًا، فهي مجبرة على فعل ذلك تنفيذًا لأوامر الشيخ:

ــ وأنت عارفة يا ابنتي، أوامر الشيخ لا ترد.

ــ معك حق.

سألتها والبراءة في عيوني:

ــ ما الذي زرع الشك في نفسه، اسألي خادمتي وأنا أبكي صباحًا لحرماني منه، كيف يشك فيَّ؟

أطالت الخادمة في وصف حزني علي ضياع أيامي مع سيدها، وأطنبت في محاولتها الكثيرة للتخفيف عني، وقالت لأم محمد:

ــ حتى يا سيدتي عندما جاءت خادمتك كانت سيدتي ساهمة، لقد رأيت الدمع في عيونها

حاولت ألا أبتسم وتجهمت وسردت الكثير حتى أثرت في نفسها تأنيب الضمير، نفت أن يكون لها سبب في ذلك:

ــ أدري يا أم محمد أنك صالحة، ولكن الأخريات!

ــ إنها الغيرة يا ابنتي، فاصبري.

ــ كما أن العادة الشهرية فجاءتني الحين.

علمت منها أنها مكيدة من زبيدة، نجحت في زرع الشك في نفس فواز، لا أدري كيف؟ يجب أن أنتبه لهذه المرأة، قررت أن أعلن عليها الحرب، وليكن ما يكون.

عدت إلي عالمي الخاص بعد رحيل أم محمد، استلقيت علي السرير لأستعيد الماضي بحلوة ومره.

كان يومًا شاقًا. فأغلبنا، إن لم يكن جميعنا، لم نعتد على ممارسة الرياضة في بواكير الصباح باعتبارها عيبًا في مجتمعات عالمنا العربي. ولكن الجميل أننا ذهبنا إلي الحديقة، أحب الحدائق والزهور. كانت الأستاذة عصمت رقيقة رشيقة وجميلة، تكبرنا بسنوات قليلة، هالها جهلنا بأساسيات الرياضة، شرحت لنا أهمية الرياضة للمحافظة على الصحة وللوقاية من الأمراض وللمحافظة على جسد رشيق غير مترهل وهو الأهم:

ــ انظروا إلى حكمت إذا لم تعتدن ممارسة الرياضة سوف تصبح أجسادكن مثلها

انتظمنا في صفوف وأخذنا نقلد ما تفعل:

ـ واحد اثنين، ثني مد..

أحببنا هذه الحصة رغم إرهاقنا منها، كما أحببنا مدرستنا. جاءتنا حكمت بالأوامر: علينا الذهاب إلى الغرف للاستحمام وتغيير الزى الرياضي، ثم تناول الطعام، والتجمع بعد ساعة في القاعة للاستماع إلى محاضرة الشيخ محمد.

ذاع صيتي بسبب نقاشاتي مع الشيخ محمد، أنا الوحيدة التي تسأل وتناقش. بعد عدة أيام فاجأت شيخي علنا بنطق الشهادة، كانت سعادته لا توصف، نزل الدمع من عيونه، هتف صارخًا:

ـ الله أكبر .. الله أكبر..

إسلامي مبكرًا يعني إتقانه لعمله، كما أنه معجب بشخصيتي، كما لاحظ الكل ذلك.

هنأتني عائشة وخديجة عندما سمعن الخبر، كانا فد انفصلا مع باقي المسلمات في المحاضرات، يأخذن بعد المحاضرة الأولي محاضرة أخري، لتحسين إسلامهن، ولتعليمهن أصول الدين.

اليوم اعتذر الشيخ للمسلمات عن حصتهن، سيخصص الدرس لي وحدي فقط ليعلمني الفروض الشرعية، حضرت معي عائشة لكي تؤازرني، كان اهتمام الشيخ بي واضحًا حتى عائشة التي لا تلاحظ شيئًا نبهتني:

ــ الشيخ سعيد بك ومهتم لأمرك.

كان أسعد الأشخاص إيزاك، الذي حضر مسرعًا إلى المدرج ومعه حكمت وهنأني:

ــ مبروك يا ابنتي.

أعطاني زيًا إسلاميًا، من الآن سأغطي شعري، سألني إيزاك:

ــ هل ستحتفظين باسمك؟

ــ لا سيكون اسمي سدرا.

من الذكاء أن أغير اسمي حتى أقطع جذور الماضي الظاهرية، وأتجنب الشبهات، استأذنني إيزاك:

ــ غدًا صباحًا سنذهب إلى دائرة الأوقاف والجوازات لإثبات دينك، سأذهب معك أنا والشيخ محمد.

كنت قد اعتقدت أن وجودي هنا غير قانوني، فوجئت بأن جميع أوراق إيزاك سليمة وقانونية، فالمعتقل هو مركز لإيواء اللاجئات السوريات، أو بالأحرى لمساعدة اللاجئات.

كانت فرحتي جمة، سأري الخارج وبصحبة الشيخ، ولكن مريم عكرت مزاجي في الحجرة، لا تكلمني، وتناولت الطعام بمفردها،»كم هي غبية هذه المسيحية«، ولكن لا لن أكشف لها سري فلتذهب إلى الجحيم، المرة الأولي التي ألعن فيها أحدًا، الديانة الإيزيدية تمنع اللعن وتعتبره من الكبائر.

استخرجوا لي جوازًا باسمي الجديد بعد إشهار إسلامي قانونيًا، سدرا محمد حشمت، على اسم الشيخ محمد حشمت، استأذنته في أخذي اسمه، ارتديت الحجاب، أطنب الشيخ على جمالي بعد الحجاب. عزمنا إيزاك على مياه غازية ابتهاجًا بهذه المناسبة، وكنت في دهشة شديدة.

عدت وقلبي يطير من السعادة، إنه ينظر إليَّ، رغم حيائه، وتدينه، إلا أن شعوري الأنثوي يلاحظ نظراته إليَّ من طرف خفي، ولكنني مازالت صغيرة، حتى الدورة الشهرية لا تأتيني بانتظام، فأول مرة كانت قبل الأسر الداعشي بأيام قليلة. سوف أستشير الطبيبة هل أنا بالغة أو لا؟

حاولت بمساعدة عائشة وخديجة أن أستعيد علاقاتي بمريم:

ــ هل تتذكرين عندما كنت خائفة مني في معسكر المتطرفين عندما كنت إيزيدية.

ولكن مريم لا ترد.

ــ الآن أصبحت من أصحاب الأديان السماوية التي تعترف بالمسيح، لا يعقل أن تقبليني وأنا من عابدات الشيطان »كما تقولين؟« وترفضيني بعد أن أصبحت موحدة.

احتضنتني مريم والدموع منهمرة من عينيها، فمريم تشعر بعاطفة الصداقة الحقيقية معي، وزاد اقتناع الفتاتين الأخريين في

حسن إسلامي، بدأت في الصلاة، عودت نفسي على صلاة الفجر، طلبت من حكمت أن نصلي جماعة إذا كان هذا مسموحًا، كما طلبت منها الذهاب إلى الطبيبة لسؤالها عن مشاكلي النسائية.

طمأنتني الطبيبة أن هذا طبيعي وقالت:

ــ ما زلت صغيرة يا ابنتي.

لم ترق الإجابة لي، فنعتني بالصغر ضايقني. ازدادت شهرتي وسط الفتيات، بسبب إسلامي، استأذنت الشيخ وإيــزاك في حضور المحاضرتين حتى أستفيد، هكذا بررت لهما، ولكني أريد أن أري الشيخ أطول وقت ممكن، حفظت جزء »عم«، وعرفت بعض الأحاديث، وأصبحت أدعو غير المسلمات للإسلام خاصة الإيزيديات منهن، ولكني تجنبت هداية مريم حتى لا أخسر صداقتها، سعد إيزاك والشيخ بمجهوداتي، زاد عدد المنتميات إلى الإسلام كل يوم حتى لم يبقَ بعد مرور أشهر قليلة سوي مريم.

جاء إيزاك خصيصًا إلى المدرج ليضع حلًا مع مريم، كنت معها أتلذذ بمحاورات الشيخ، ناقشها الشيخ في عقيدة التثليث، لم أتدخل حتى لا تغضب مريم، رغم ودي أن أظهر براعتي للشيخ، عنفها إيزاك على عنادها، أصابت مريم حالة هستيرية صائحة فيهم:

ــ حرام عليكم لا أريد الإسلام.

أصابتها إغماءة وتشنجات عصبية، أعطتها الطبيبة حقنة مهدئة،

قررت أن أتدخل في الأمر:

ــ بعد إذن الشيخ محمد وبعد إذن الأستاذ إيزاك اتركوا لي مريم أيامًا معددوه وأنا كفيلة بهدايتها للإسلام.

خشيت أن يغضب الشيخ مني لتدخلي في عمله، ولكن الشيخ فرح بمساعدتي، فهو يريد الخير والهداية للجميع.

بعد أن هدأت مريم دار نقاش عنيف معي في غير وجود عائشة والتي طلبت منها تركنا بمفردنا، تمسكت مريم بإيمانها الإنجيلي، انفجرت فيها:

ــ لم أرَ غبية مثلك.

ــ ماذا تقولين؟!

ــ أتدرين أنه في عدم إسلامك قد يرجعونك إلى المتطرفين أو يبيعونك كسبي.

ــ وإذا أسلمت لن يبيعوني؟

ــ ستتزوجين.

ــ لا فرق.

ــ لا، يوجد فرق، ستكونين زوجة لك كل حقوق الزوجات وقد يكون نصيبك مع رجل صالح ثم إن الإيمان في القلب، تظاهري بالإسلام حتى تتخلصي من الضغوط.

ــ وهل تتظاهرين أنت؟

لم أرد طبعًا، أنا في قرارة نفسي إيزيدية ولكن ليس لي خيار. اقتنعت مريم بمنطقي، أشهرت إسلامها وسط ذهول الجميع وسعادة إيزاك والشيخ محمد، ازداد قدري لدي الرجلين لدرجة أن إيزاك حاول مكافأتي ماديًا:

ــ ممكن ندع المكافأة لوقتها عندما أحتاجها، وبالطبع لن تكون نقودًا.

وافق إيزاك مرحبًا، أسلم كل الفتيات. وانتهي من مرحلة، سيبدأ مرحلة أخري. لم تغير مريم اسمها وإن ارتدت الحجاب، لم تكن تقتنع مريم بمنطقي كاملًا، فقلبها لا يعرف غير المسيح إلهًا، بالإضافة إلى تربيتها منذ أن كانت صغيرة على أن المسلمين وحوش، كيف تصلي مثلي لإلههم؟ كيف تقرأ القرآن؟ كيف تصوم صيامهم؟ والأهم لديها أنها لن تتمكن من الصلاة إلى المسيح، اعترفت لي بذلك عندما ضبطتها يومًا راكعة تصلي وترسم علامة الصليب، نصحتها أن تغلق الباب في مثل هذه الحالات أو أن تصلي في الحمام.

توالت الدروس الدينية إلى أن أعلن الشيخ أن هذا الأسبوع آخر برنامجه لهن، شرح لنا واجب الزوجة المسلمة تجاه زوجها وأبنائها ومجتمعها، ثم تمني لنا التوفيق في حياتنا المقبلة:

ــ يعني هذا أننا لن نراك يا شيخ مرة أخري؟

ــ سوف أحضر يومًا في الأسبوع لأري إن كان لديكن أي

استفسار أو مشكلة يا سدرا.

كنت أفضل أن يناديني كولي، ولكن لا حيلة لي فقد قضي الأمر. كانت علامات الحزن واضحة علي وجهي حتى إن كل الفتيات قرأنها، زاد همس الفتيات حول عشقي للشيخ. استمرت دروس الرياضة البدنية، جاءتنا الأستاذة فادية، صورتنا بكاميرا رقمية من جميع الزوايا، عرفنا فيما بعد أن صورنا وضعت في موقع مخصوص علي الشبكة العنكوبتية حتى يستطيع راغبو الزواج الاختيار من تروق له.

في ليلة ما وجدت مريم باكية، هدأتها، وسألتها عما أصابها، رفضت الحديث في وجود عائشة، استأذنت عائشة في تركنا بمفردنا، فاجأتني مريم:

ــ لي رغبة بخديجة.

لم أفهم ولم أستوعب، طلبت منها أن تشرح لي:

ـ تنتابني رغبة في ممارسة الجنس مع خديجة.

ــ وترضين بالخطيئة.

ــ لقد رضيت بأشياء كثيرة ولكن!

ــ لكن ماذا؟

ــ خائفة.

ــ ولماذا تقصين عليّ؟

ــ لأنك صديقتي ولأنني أثق في مشورتك.

ــ صلي للرب يا مريم أن ينزع من قلبك حب الخطيئة.

صلت مريم كثيرًا، استعانت بالعذراء، لم أتركها إلا وهي نائمة مبتسمة، ولكن للأيام تصاريف أخري.

اليوم ستلقي علينا الأستاذة فادية محاضرة، كانت ثلاثينية، تتحدث العربية بطلاقة، كما تتحدث اللهجة الشامية، يبدو أن لها أصولًا عربية أو لا أدري، أبهرتنا فادية ليس فقط بأناقتها رغم جمالها المحدود، أبهرتهن أيضًا بجراءتها. عرضت علينا من خلال البروجكتور دروسًا في العلاقة الزوجية عن الأوضاع الجنسية، ثم عرضت أفلامًا إباحية حية عن بعض الممارسات والتي قد يعتبرها بعض البيئات عيبًا أو حرامًا، وشرحت لنا شذوذ العلاقات الجنسية بجميع أنواعها، بين الرجال وبين السيدات وبين الرجال والنساء.

ركزت فادية على دروس كيف تسعدين زوجك، ورغم أن مواضيعها مثيرة إلا أن المدرج ظل صامتًا، وتابعت الفتيات الأفلام برغبة وخوف.

أصبحنا كلنا في حالة غير عادية، تغلبت عائشة على رغبتها بالصلاة والقيام. دخلت أنا الحمام وداعبت ثديي وأعضائي التناسلية تحت الدش حتى وصلت للإشباع، هذه أول مرة أمارس فيها العادة السرية. أما مريم فلم تستطع الصمود، تسللت عند نوم عائشة،

وكنت مازالت مستيقظة فانتبهت واستوقفتها متسألة:

ـ إلي أين يا مريم؟

ـ إلي عائشة لا أستطيع أن أقاوم.

بكت وهرولت إلى غرفة خديجة، سرت وراءها، فلم يكن النوم مهمًا، نظرت من فتحة الباب ويا ليت ما نظرت، مريم تنزع عباءتها فيظهر جسدها عاريًا وارتمت في أحضان خديجة، تسمرت مكاني، أريد أن أرحل، قدمي ترفض، سمعت خديجة وهي تعترف بحبها لمريم:

ـ هل يمكن أن تحب امرأة أخري يا خديجة.

ـ إذا كان لديها مثل جسدك.

قبلتها في شفتيها قبلة طويلة وواصلت حديثها:

ـ بحبك يا مريم لو معي نقود لافتديتك من هنا.

تعانقا وأكملتا شذوذهما، تسللت عائدة إلي غرفتي واضطررت إلي العودة إلي الحمام لتهدأ رغباتي.

أيقظتني نوبا من التجوال في الماضي، دخلت سعيدة تصرخ في:

ـ سيدتي .. سيدتي ..

لم تنتظر مني أن أرد وواصلت هجومها الكلامي الذي أفزعني:

ـ سيدي فواز هنا قومي بسرعة.

دهشت.. فواز هنا وأنا مريضة وغير طاهرة سأذهب لأري.

- 7 -

جاء الرجل ليعتذر لي عن شكوكه فيِّ، ولكن هيهات أن أقبل اعتذاره بسرعة، يجب أن يتعلم أني غالية، تودد لي أكثر من مرة:

ــ يكفيك يا سدرا، أنا أخطأت ولهذا أعتذر.

ــ أنا يا سيدي أهرب من لقائك. كيف؟ وأنا أنتظر هذا اليوم كيوم عيد لي.

ــ لعنة الله علي الشيطان الذي وسوس لي الأمر.

انقبض صدري من لعن الملاك الأعظم، ولكني لم أظهر شيئًا:

ــ سيدي يقصد الشيطانة.

ابتسم قائلًا:

ــ لقد ضربتها وحرمتها من ليلتها.

ابتسمت بدلال وطلبت منه تقبيل يده:

ــ إذا كان ممكنًا.

ــ بل أنا الذي أقبل يدك لأعتذر.

أحني رأسه ليقبل يدي، فهويت علي الأرض لأقبل قدمه:

ــ أنت سيدي، وأنا لا أحبك فقط، فليسامحني الله، بل أعبدك.

اهتز جسد فواز من التأثر، شعرت به من طرف عيني، رفعني من علي الأرض، احتضني، اعترضت:

ــ سيدي، صلاتك إني نجسة، كما أن البرد مازال في جسدي.

تذكرت كلمة نجسة عندما كان يقذفون بها في وجهي، استمر فواز في حضني:

ــ لا يهم، سوف أستحم، كما أنني حضنتك ولا يهم أن أصاب بالبرد أم لا، بل أريد أن أصاب حتى تشفي أنتِ.

ــ سلامتك سيدي.

أنهي حضنه عندما أحس بشهوته تتأجج، طلب مني ارتداء العباءة لأنه سيبتاع لي ذهبًا:

ــ وهل ستشتري للباقيات؟

ــ لك يا حبيبتي فقط.

ــ ولكن أم محمد وعلية ستغضبان مني، كما أنني سامحت زبيدة، معذرة سيدي يجب أن تشتري لنا جميعًا أو لا تشتري.

ــ ولكني لم أخطئ في حق أي منهن.

ــ أرجوك يا سيدي، هذه حقوقهن كما أنني لا أريد أن أزيد الجفاة بيني وبين أحد.

ــ كما ترين، فلنؤجل الشراء إلى أن أفكر في الأمر.

قبلني في شفتيَّ وسط ضحكات الخادمة، قائلًا:

ــ متى تنتهي هذه العادة اللعينة، إني أشتاق إليك.

ــ يعلم الله كم أشتاق إلي سيدي وإلى0....

تعمدت أن ألمس برقة جلبابه عند عضوه التناسلي، زاغت عيناه واحمرتا، وانتفض جسده وتعرق، فوجئنا بجريه من الشقة إلي الخارج.

ضحكت خادمتي بغنج:

ــ يا لحظ صاحبة هذه الليلة، لقد استوى الرجل.

عدت إلى سريري وأنا أشعر بالنصر مرة أخرى.

تذكرت مريم وخديجة وكيف كان صعبًا أن يختبأ سرهما في هذا المكان المغلق، ازداد همس الفتيات، أصبح كلامًا علنيًا بعدما نزعت الفتاتان غطاء الحياء وأعلنتا عشقهما، حذرتهما حكمت، بعد أن فاجأتهما على الفراش:

ــ ليس لدينا مشكلة فيما تفعلانه، ولكن حافظا على عذريتكما وإلا ستكون العواقب وخيمة

كانت حكمت مضطربة كما قالت لي مريم، اعتاد العاملون على مثل هذه التصرفات من قبل الفتيات، خاصة بعد الدروس الجنسية، انقسم البنات في الرأي من المخطئة؟ خديجة أم مريم أم الدروس،

تجنبتهن معظم الفتيات إلا أنا، لم أقطع علاقتي بهما، وقفت عائشة في المنتصف، لم تعد تتحدث معهما ولكن لم تستطع اتخاذ قرار المقاطعة خاصة في وجودي في الغرفة، تركت مريم الغرفة وأصبحت تنام في غرفة خديجة ذات السرير الواحد، كانت الفتيات يتهامسن بدرجة أقل عن حكمت ونيفين ولكن مريم وخديجة أعلنتا حبهما علنًا ولم تهتما برأي الآخرين.

عاتبتها مرارًا عما تفعله، عن تركها الغرفة وعن إهدار قيمة جسدها، وعن عدم المحافظة على سمعتها، سخرت مني مريم، ذكرتها بإيمانها المسيحي:

ــ هكذا ترتكبين الخطيئة، هذا يتنافي مع إيمانك المسيحي.

يعلو الوجوم وجه مريم، الجميع يعاملونها على أنها مسلمة، رغم عدم مواظبتها على الصلاة، ورغم عدم إحكامها الطرحة في وجود الرجال.

تساءلت مريم بصوت مسموع لي:

ــ لماذا انزلقت في الخطيئة؟ هل هذه هي الوسيلة الصحيحة لاعتراضي على الأسر أو على الإسلام، إنني بهذا أبتعد عن الرب.

حكت لي بأن جدتها لأبيها كانت تخبرها دائمًا أن نساء المسلمات زانيات خاطئات لأنهن لا يؤمن بالرب، وأنهن يؤمن بالأوثان.

شعرت مريم بالذنب والحيرة بعد هذه الفضفضة، ولكنها

استمرت في الخطيئة وإن ظلت بكرًا. لا تستطيع الاستغناء عن خديجة، معها تشعر بأنوثتها كما بررت لي، معها تشعر بإنسانيتها، وأيضًا بمسيحيتها، لن تهتم بكلامي ولا بكلام الفتيات الأخريات، هكذا قالت لي.

استمرت الأيام جميلة مع مريم إلى أن وقعت الواقعة. حضر العريس الخليجي الذي طلب عروسة سودانية سوداء، وما إن رأي خديجة حتى وافق عليها، وبدأ مع اليهودي في إكمال الإجراءات، ستذهب معه خديجة بتأشيرة خادمة حتى توافق سلطات بلده على.. ولكنه سيتزوجها هنا في تركيا باكرًا، كانت ليلة الوداع والدموع لمريم.

ــ لا أدري ماذا سأفعل بدونك، سأفتقدك يا خديجة

قبلتها خديجة في شفتيها أمامنا، ومررت إبهامها الأيمن علي ثدي مريم ثم على باقي جسدها لأسفل:

ــ أنا التي ستفتقدك. من أين لي بمثلكِ، جسد أحمر وقلب أبيض.

تعانقتا، أعلنتا بجرأة أنهما لن يناما الليلة، فهي ليلتهما الأخيرة، سترتويان بالحب، وستطفئان شهوة جسديهما بالخطية، ذهبا إلي حجرة خديجة وسط دهشة عائشة ووسط امتعاضي.

في الصباح ودعت مريم خديجة بالدموع. تعاطفت الفتيات مع مريم، واحترمن بكاؤها وحزنها. رفضت مريم دعوتي بالعودة إلى

غرفتنا، وباتت ليلتها في حجرة خديجة بمفردها. جاءتها حكمت لتواسيها، ارتمت مريم على صدرها باكية، واستسلمت لقبلات حكمت:

ــ أنا أحبك منذ رأيتكِ، ولكن خديجة سبقتني.

خضعت مريم لها، هدأت، ولكنها لم تشعر بالسعادة التي كانت تشعر بها مع خديجة، كانت خديجة تعرف كيف تروض جسد مريم الهائج، رفضت أن تسمح لحكمت بالمبيت في الحجرة بعد أن أفرغا شهوتيهما.

تطور دور مريم في الممارسة الجنسية، ففي إحدي المرات اعتلت حكمت وقامت بدور الرجل، شعرت حكمت بلذة غريبة، استعادت كينونتها الأنثوية. ومع استمرار العلاقة، ازدادت غيرة حكمت عندما تتحدث مريم مع إحداهن أو تضحك لحديث الفتيات، حاولت حكمت تأخير زواج مريم عند حضور الرجال، رحلت عائشة، كانت تتعلل لمديرها بأن ثمن مريم المعروض قليل وأن عليه أن يصبر حتى يأتي من يقدر جمال جسدها الأسمر.

سلبت مريم عقل حكمت تمامًا، أتقنت مريم الدورين، فأصبحت تصرفات حكمت طائشة، وصل خبرها إلى إيزاك:

ــ أنا أدري أن البنت جميلة، ولكنك تعلقت بها.

لم تستطع حكمت الرد، طالما مارست الجنس مع فتيات قبل

مريم، إلا أن مريم فجرت فيها شيئًا مختلفًا، هكذا قصت عليَّ مريم لتريني القناع الزائف للأخريات قبل رحيلها.

إلى أن جاء سعر مناسب لم تستطع حكمت أن تعلق عليه. بدءوا في الإجراءات حتى انتهت، غدًا ستغادرهم، ودعتنا مريم، رفضت المبيت مع حكمت، ستنام اليوم في غرفتي:

ــ أرجو أن تتذكريني يا كولي.

ــ لا تنسي يا مريم أنا الآن سدرا.

ــ إننا بمفردنا.

ــ حتى ولو، يجب أن تتقمصي الدور حتى وأنتِ بمفردكِ.

نظرت إليَّ مريم بإعجاب، هي أيضًا تحبني وتحترمني، تذكرنا سويًا ما مررنا به من أحداث، من أول يوم نفرت مني بسبب عبادة الشيطان إلى أن أقنعتها بإعلان الإسلام.

ــ يا ليت كنت قوية مثلكِ.

قالتها مريم صارخة.

أغلقت حكمت على نفسها غرفتها. غابت في الصباح، وتهامست الفتيات حول غيابها إلي أن أحضرها إيزاك في الظهيرة، حاولت أن تتماسك ولكنها بدت كمن أمضت نهارها في البكاء لتفرغ حزنها، سمعت إيزاك يؤنبها بصوت منخفض:

ـ هي فتاة مثل أي فتاة، عرفت قبلها وستعرفين غيرها بعدها.

يبدو للوهلة الأولي أن بكاء حكمت غير مقنع ولكنها إرادة الله الذي يقلب القلوب كيف يشاء، ورغم اشمئزازي من حكمت إلا أنني تعاطفت معها.

كانت مريم قد قصت عليَّ أخطاءها وحكيتها مع حكمت بالتفصيل وكأنني كاهن الاعـتراف الخـاص، أعترف أني رغم امتعاضي فإنني استمتعت بالتفاصيل الجنسية الصغيرة. رحلت مريم، ورغم محاولات حكمت الظهور بالثبات فإنها عندما تكون بمفردها تنتابها نوبات البكاء، لأنها تأتينا صباحًا وعيونها حمراء. لم تكن حكمت الحزينة فقط ولكني أنا أيضًا، مع اختلاف الأسباب، غادر صديقاتي الواحدة تلو الأخرى، لم أعد أري الشيخ إلا لمامًا ولدقائق معدودة إذا حضر إلى مبنانا. إلى أن استدعاني إيزاك يومًا، وهو متبسم:

ــ جاء لكِ عريس يا ابنتي، رأي صورتكِ وأعجب بكِ.

ــ متى سيحضر؟

ــ اليوم سيراك، أرجو لك السعادة.

ــ لي عندك خدمة يا أستاذ إيزاك، أتتذكر؟

ــ نعم ما هي؟

ــ إذا تم الزواج أرجو تركيب كبسولة تمنع الحمل لمدة خمس سنوات فأنا مازلت صغيرة على ذلك.

فكر إيزاك قليلًا وكأنه يفكر في نقود الكبسولة إلا أنه احترم كلمته، وافق على طلبي فلقد ساعدته في إقناع مريم بالإسلام وغيرها كثيرات، كما أنني أول من اقتنع بالواقع فأسلمت.

نصحتني الطبيبة ألا أفعل لصغر سني، وخوفها عليَّ من تأثير الكبسولة علي فرصي في الحمل فيما بعد، ولكنني صممت.

حضر الشيخ فواز، كان في أوائل الخمسينيات، يرتدي العقال على عادة أهل الخليج، فيخفي شعره الأبيض، متوسط الطول، يميل إلى البدانة مع وجود كرش عظيم، لم يكن وسيمًا ولكنه لم يكن دميمًا.

فحصته جيدًا رغم أنني تظاهرت بالخجل ونظرت إلي الأرض، تصنعت الخجل فنظرت إلى الأرض طوال اللقاء. أثني علي إيزاك، كما أثني علي الشيخ محمد وعلي إسلامي وعلى دوري في إسلام باقي الفتيات. أخبرني إيزاك أن الشيخ فواز سأل الشيخ محمد بعد رحيلي:

ــ إني خائف من كونها إيزدية من عبدة الشيطان.

ــ على ضمانتي يا شيخ فواز، وستدعو لي فقلبها عامر بنور الإسلام.

أكملوا إجراءات التأشيرة، سأذهب معه كخادمة أيضًا، وتزوجته عند مأذون تركي.

غادرنا من المأذون إلى المطار، سألني فواز:

ــ هل تريدين شيئًا؟

نظرت إلى الأرض وبصوت خافت وبأدب شديد:

ــ شكرًا يا سيدي.

اطمأن قلب الشيخ فواز لهذه الإجابة من لدني، ولذلك السلوك.

في الطائرة كنت مرتدية حجابًا كاملًا أغطي به وجهي، لم آكل في الطائرة حتى لا أكشف وجهي، هكذا قلت لفواز، ظللنا صامتين طول الرحلة.

ذكر لي فواز كيف انتشرت في بلدته عادة الزواج بالسوريات الهاربات من جحيم الحرب، ليس فقط في بلدته بل في الخليج العربي كله، دفع ثمنًا باهظًا، الآلاف من الدولارات:

ــ هذا كثير يا سيدي.

ــ لا، إنك تستحقين ذلك لجمالك وأدبك.

نظرت إلي الأرض خجلًا من ثنائه، وابتسم هو مسرورًا بنفسه، سيجدد شبابه، وسيحسده أصدقاؤه قبل أعدائه.

- 8 -

كان صعبًا علي زبيدة أن تتقبل هزيمتها، جاءت لي بشرها، حاولت استفزازي فلم أرد، سبتني بأقبح الألفاظ، أقلها «كافرة ونجسة»، لم أرد عليها ليس لعدم قدرتي ولكن بصراحة لتلذذي بمنظرها وهي مهزومة، فالسباب وسيلة الضعيف.

هرعت نوبا لإحضار أم محمد، وحضرت علية بعدها بعدما سمعت الشجار، ازداد سعار زبيدة، رأيت السعادة علي وجه علية رغم ردها علي زبيدة:

ـ يكفي هذا فهذه أختنا الصغيرة.

ـ أختنا! هذه شيطان رجيم.

تدخلت أم محمد وأخرجت زبيدة، تطاولت زبيدة علي خادمتي:

ـ عبدة السوء، ذهبت لإحضارهن؟

صفعتها علي وجهها، حينئذ صرخت فيها أم محمد:

ـ يكفي هذا يا زبيدة الزمي حدودك واخرجي.

خرجت والشرر ينطلق من عينيها، طلبت أم محمد من علية أن تلحقها لتهدئها، حاولت أن أبكي فلم تسعفني دموعي، لا أدري لماذا، احتضنتني أم محمد كأمي:

ــ لا تغضبي يا ابنتي إنها غيرة النساء.

ــ لقد اتهمتني بالكفر.

ــ النساء ناقصات عقل ودين.

ــ ولكنك كاملة.

شكرتني، طلبت مني ألا أخبر فواز، ترددت، فألحت عليَّ:

ــ لو علم سيطلقها، وأعلم أنك لا ترضين ذلك.

ــ ولكني أخشي أن تخبره هي بطريقتها.

ــ في هذه الحالة تبقى جنت براقش علي نفسها.

ــ كيف؟

ــ سأشهد بالحق، والحمد لله فواز يثق فيَّ.

ــ كما ترين، فأنا لا أستطيع أن أعصي لكِ أمرًا.

حضنتني وقبلتني وشكرتني وسط دموع نوبا، توجهت أم محمد إلي نوبا:

ــ لا تغضبي، أنا أعتذر بالنيابة عنها.

ــ العفو يا سيدتي، لقد ذهبت لك لأنني أعلم أنك راجحة العقل فستعرفين كيف تنهي هذا الشجار.

أعطتها نقودًا كثيرة وخرجت، انتابت نوبا نوبة بكاء، فأعطيتها مثل أم محمد لتهدأ.

دخلت حجرتي، جلست علي جهازي المفضل، أتصفح الأخبار، فوجئت علي موقع العربية بخبر، قرأته بفزع:

« انتحار مقيمة سورية بقطع شرايين يدها، زوجها ينكر سوء المعاملة».

قرأت تفاصيل الخبر، يا ملاكي الأعظم، إنها مريم، نعم مريم التي أعرفها، دققت النظر في صورة الجثة، إنها هي. يالا تصريف القدر، كانت تسكن بالشارع المجاور، وأنا لا أدري، ربما لو قابلتها لكنت نجحت في تحفيزها بالصبر والرضا بقدرها.

لم أستطع أن أكمل، أغلقت الجهاز ودموعي تنساب أنهارًا، لا أدري ماذا حدث بعد ذلك، حكت لي الخادمة بعد ذلك أنني أخذت في الصراخ مرددة كلمة واحدة فقط:

ــ حرام.. حرام.. حرام..

وبعد ذلك أصابتني تشنجات ثم إغماءة، هرعت الخادمة لإحضار أم محمد التي سرعان ما أخبرت فواز بالنقال كما قصوا عليَّ.

اتصل فواز بابنه محمد الذي حضر ومعه زميله طبيب نفسي فلسطيني يدعي جمال، يعرفني من قبل. فواز يثق في جمال ليس فقط لأنه في نهاية السبعينيات من عمره ولكن لأنه مطوع ولحيته تكاد

تصل إلي الأرض، وقد سبق أن عالجني.

سأل جمال سؤالًا واحدًا صعبًا:

ــ هل توجد مشاكل أو حدث أن انفعلت بسبب ما.

ــ أنا لم أكن موجودًا، فقد كنت في العمل فلنسأل خادمتها.

وصفت لي الخادمة هذه اللحظة الصعبة فهي لا تدري كيف تجيب، نظرت هي إلي أم محمد مستنجدة، فصرخ فيها فواز:

ــ قولي شيئًا عليك اللعنة يا خادمة السوء.

تدخلت أم محمد:

ــ لقد تعاركت معها أم مقرن وأهانتها.

ــ وضربتني أنا أيضًا.

نظر فواز للخادمة بضيق، طلب الطبيب نقلي للمستشفى:

ــ لماذا يا دكتور جمال هل حالتها خطيرة؟

ــ لا تخف يا شيخ فواز، سننقلها من أجل سرعة علاجها، فبالإضافة للانهيار العصبي أري أنها ضعيفة تحتاج إلي تغذية صناعية.

في الطريق وأنا في سيارة الإسعاف، قصت أم محمد علي فواز ما حدث، كما أطنبت الخادمة في وصف التفاصيل، لم أكن في كامل وعي ولكني سمعت بعض الكلمات، اتخذ فواز قرارًا صعبًا عندما قال لأم محمد:

ـ لابد من عقاب صارم وحازم.

جلست في المستشفي نائمة يومين، من أثر الحقن المهدئة، كم هي سخيفة تلك المغذيات بإبرها، أفقت لأجد الخادمة بجواري، سألت:

ــ أين أنا يا نوبا؟

أطلقت الخادمة زغرودة حضر علي أثرها فواز وأم محمد وعلية والطبيب، اعتدت غرف المستشفيات هنا، الغرفة نظيفة وواسعة، ليست كأجنحة المرضي القذرة في سوريا، هنا لكل المرضي غرف خاصة، وفي بلدي الغرف النظيفة فقط للمحظوظين من المخابرات والحزبيين.

ــ أين أنا؟

قبل فواز جبهتي:

ــ اهدأي أنت في المستشفى.

ــ أريد أن أعود إلى منزلى.

زادت فرحة فواز، سألني الطبيب:

ــ هل كرهت مستشفانا بهذه السرعة.

ــ أنا بخير والحمد لله.

ــ أريد أن نتبادل الحديث سويًا لو سمحتِ.

ــ لا أنا بخير.

سلمت عليَّ أم محمد وعلية، بحثت عن زبيدة فلم أجدها، سألت:

ــ أم مقرن مازالت غاضبة، لم تأتي لزيارتي.

أجابني فواز وهو مقطب الوجه:

ــ لقد طلقتها.

فزعت، صرخت:

ــ لا.. لا..

انتابتني نوبة بكاء حادة، لا أدري لماذا أبكي، هل أبكي علي عدوتي أو علي حالي أو علي مريم؟

طلب الطبيب من الجميع الخروج، رفضت خروجهم، طلبت من الخادمة أن تجلسني، توسلت وعيوني مليئة بالدموع:

ــ سيدي أرجوك من أجل خاطر نسائك الحاضرات أعيدها.

بهتت وجوه من في الغرفة عدا أم محمد وخادمتي، توقعتا مني ذلك كما قالا لي بعد، لم يدرِ فواز ماذا يقول، طلبت منه الاقتراب، قبلت يده وأعدت توسلي، بكت أم محمد وانتزعتني من فواز وحضنتني:

ــ والله لم أرَ إيمانًا مثل إيمانك ولا أخلاقًا مثل أخلاقك.

بكت الخادمة ولم تجد علية بدًّا من البكاء، الجميع ينتظر رد فواز:

ــ حاضر من أجل خاطرك حاضر.

كتم فواز دموعه مع أني لاحظتها، تدخل الطبيب:

ــ علي شرط يا شيخ فواز؟

دهشنا جميعًا من تدخل الطبيب في مثل هذه الحالة الخاصة جدًّا خاصة في مثل طبيعة هذه البلاد، واصل الطبيب شارحًا غرضه:

ــ أن تمكثي معانا لاستكمال علاجكِ.

جلست يومين آخرين بالمستشفي، حاول الطبيب أن يستفزني لإعطائه أي معلومات عما أعاني ولكني صمدت، فهو يعتقد أن سبب حالتي معركة زبيدة معي، لم أؤكد ولم أنفِ. بالطبع لم أخبره عن مريم، يبكي قلبي دمًا حين أتذكرها، مسكينة هذه الشابة، لم تتحمل نوائب الدهر. سألت نفسي وهل للدهر نوائب؟ إنها مسئولية البشر، بدءًا من بشار الأسد مرورًا بالمتطرفين، وإيزاك، انتهاء بزوجها الذي أساء معاملتها، أشار تقرير العربية نت إلى أن هناك أقاويل من الخادمات بأنهن سمعن مريم وهي تأن من أثر السياط. المضحك أن ضرب الأزواج لزوجاتهم شرعي ولا يعاقبون عليه. شكرت الملاك الأعظم لأن فواز منع الضرب، لا أريد أن أتذكر ضربه السابق لي، لقد طلق امرأته من أجلي، يجب أن أتناسي بعضًا من الماضي لكي أحيا، حتى لا أخسر حياتي مثل مريم.

فوجئت بدخول زبيدة وتقبيلها لرأسي ويدي وقدمي، خجلت، طلبت السماح، احتضنتها:

ــ أشكرك علي موقفك وسامحيني.

ــ الله يسامحك ويسامحني ويسامح المسلمين أجمعين.

ــ أمين.

قالوها جميعًا، أراد الطبيب إعطائي دواء، سألته:

ــ هل يؤثر علي فرصي في الحمل؟

نفي الطبيب ذلك، وتورد وجه فواز، أيقن أنني أرغب في الحمل منه، عدنا إلي البيت، تنازلت أم محمد عن يومها لي، سألني فواز:

ــ هذا إذا كانت صحتك جيدة، المهم صحتك أي شيء آخر يمكننا تأجيله.

لا أدري لماذا وافقت، أشرت برأسي خجلًا. أطعمني فواز بيده، ألح عليَّ إن كنت لا أستطيع المضاجعة، سيجلس معي فقط للاطمئنان عليَّ، بالفعل رقدت علي السرير، كان يجلس بجواري يقرأ لي قرآنه، ويدعو إلهه أن يشفيني، لا أدري ماذا أصابني، لي رغبة به، ولا أخجل من ذكرها، قمت بعد نصف ساعة، كان فواز نائمًا علي الكرسي، قبلته، أفاق مندهشًا:

ــ أحبك يا سيدي وزوجي.

داعبني ولم ينزع جلبابه مرة واحدة كعادته، أخذ يطلق لي معسول الكلام، تجاوبت معه، أرضاني نعم أول مرة أتلذذ معه وأصل إلي شهوتي، لا رغبة لي في القيء، حاولت أن أرضيه ليكمل شذوذه، رفض وسط دهشتي الشديدة:

ــ الطبيب بصراحة أوصاني بك.

ــ كيف؟

ــ قال لي إنك مختلفة من النوع الذي لا يتحمل الضغوط.

دهشت ولكنه استرسل:

ـ ليس عن ضعف شخصيتكِ، ولكن عن نبل أخلاقك، ورقة شهد لكِ بها الجميع حتى ضرائرك

أنعشتني كلماته، تسربت يدي لأداعب عضوه الذكري، كانت ليلة جميلة بالنسبة لي، وصلت للذروة مرات عديدة، جميل زوجي هذا.

زوجي، لقد اعترفت به زوجًا، لا أدري لماذا تغير موقفي من زوجي، لقد واصل رقته ورومانسيته علي قدر ما يستطيع طوال الأيام بعد خروجي من المستشفي، يبدو أنني قنعت بحظي في الدنيا، كدت أن أعترف لزوجي بكبسولة منع الحمل ولكن شيئًا ما منعني، وخيرًا فعلت.

تكررت لقاءاتي بزوجي، ضرائري يتسابقن في إرضائي وإرضائه، زاد استمتاعي معه أو لا أدري زاد استمتاعي به، سألت نفسي هل بدأ قلبي يحبه؟ أو هي الرغبة فقط، لا أدري أيضًا لماذا زادت شهوتي، هل لأنه غير طريقته وكف عن قسوته، أو أن الأمر له تفسير آخر فسيولوجي خاص بي؟

لم أعد أتذكر أيام الأسر الداعشي، تفرغت لزوجي وللمتعة، وكأنني نسيت كولي، ليس عيبًا أن أصرح أنني أستمتع معه، ولكن للأيام تصاريف أخرى.

- 9 -

جلست علي الكمبيوتر، فتحت صفحة التواصل الاجتماعي الخاصة بي والتي عنونتها باسم القمر السوري الحزين. دخلت علي صفحة تجمع للأكراد وكانت بالصدفة في ألمانيا، طالعت الصور والأسماء، حتى وجدته، نعم هو عدي ابن عم والدي، رغم أنني لم أره من قبل، فقد هاجر وأنا طفلة هربًا من حزب البعث لأنه كان معارضًا، إلا أنني متأكدة من أن هذا الشخص هو فالاسم كاملًا اسمه هو، ولقب العائلة هو نفسه، يا ملاكي الأعظم، دخلت علي صفحته، لديه العديد من الأصدقاء والمتابعين، صفحته كلها سياسية، ضد حكام العراق وسوريا الحاليين والسابقين، انتابتني الحيرة، ماذا أفعل؟ هداني عقلي أن أتأكد أولًا، بعثت له رسالة أسأل إذا كان هو الشخص المقصود، المفاجأة بعث لي بالإيجاب وبسرعة، سألني عن اسمي، أجبته، تذكر فورًا والدي، سألني عن حاله، أخبرته بنصف القصة، غياب شمسه هو وأسرتي، لم أقص

عليه باقي حكايتي، فلأتروى، اعتذرت منه من أنني يجب أن أنهي النقاش، طلب مني أن أقبل صداقته علي موقع التواصل الاجتماعي، رفضت، أبلغته أنني سوف أخبره بظروفي لاحقًا، أغلقت الجهاز.

ارتميت علي السرير، كنت سأبكي، ولكني حبست دموعي، وحسنًا فعلت، جاء فواز صدفة، ارتميت في حضنه، قلق من احمرار عيوني:

ــ لماذا تبكين؟ هل أغضبك أحد؟

ــ لا.. لا.

ــ إذن لماذا الحزن؟

فوجئ بي أقبله في شفتيه:

ــ فقط توحشت رؤية سيدي.

تسمر زوجي واقفًا، لا يدري ماذا يفعل، طلبت منه الذهاب إلي عروسة هذا اليوم، تردد، أصررت عليه:

ــ يكفيني مؤقتًا هذه القبلة الآن.

ضمني إلي صدره، ما أحلي الحضن الذكري، تذكرت والدي وحنانه، سألني زوجي مرة أخرى:

ــ سوف أقنع علية.

ــ لا يا سيدي أولًا حتى تشتاق إليَّ.

ــ وثانيًا؟

ـ هذا حقها لماذا أطلبه لنفسي وأحرمه علي غيري.

ـ كما تريدين.

ـ فقط سيدي لا تحرمني من لقاء وجهك أنا أشعر بالأمان عندما أراك.

تسمرنا في مكاننا، فلم نستطع لا أنا ولا زوجي أن نتماسك، أخذ وطره مني، رجوته أن يرحل لعلية حتى لا تغضب، رحل وازداد قلقي.

بعد رحيل زوجي، لم أستطع النوم. يجب عليَّ أن أقرر، هل أرضى بهذه الحياة؟ لا توجد لديَّ مشاكل مادية، زوجي يعاملني وكأني ملكة، ولا توجد مشاكل الآن مع باقي نسائه، ولكن هل هذا فقط ما أريده؟ تحركت الدموع في عيني مرة أخرى، صرخت بداخلي:

ـ لا، هذا ليس وقت بكاء.

ولكن ماذا سيفعل لي عدي إذا أخبرته بقصتي؟ أعلم أنه ناشط سياسي، سأنتظر، لن أتهور، نعم فقدت اسمي وديني ووطني، فقدت كياني كله، ولكن حالي أحسن من الكثيرات، علي الأقل مازلت حية، وأعيش مع رجل يحبني، نعم هو في عمر والدي، ولكن ما حيلتي؟

مرت الأيام وأنا أتجنب الكمبيوتر مخافة أن ألتقي بعدي، أخشي

أن أكون قد تورط وقد يعرف فواز ويعاقبني، كما خشيت من رد فعل عدي، أعلم أنه ناشط ماركسي، فكرت في أنه قد يستغل قصتي للتنديد بالجميع، وقد يصل هذا التنديد إلي زوجي فتكون العواقب وخيمة، كلمت رجلًا غيره، واشتكيت، ومازلت علي ديني.

لا يوجد جديد، ازدادت رقة زوجي، وارتضت نساؤه بحالهن، لا يوجد ما يعكر الصفو سوى تفكيري.

عدت إلي تذكر الماضي، كان أحد شباب عشيرتي يحاول أن يكلمني ولكني رفضت، تربص لي مرة وأنا عائدة من المدرسة بالحسكة فضربته بالمدية التي أعطاني أبي إياها، حكم الشيوخ عليه بألا يقترب مني وعلي أبي بغرامة مالية. غضبت أمي لانتشار القصة وخوف الشباب مني، ابتهج أبي كثيرًا، تيقن أنني لست مثل الأخريات، أبحث فقط عن العريس، وأن لي طموحًا آخر.

سامحني يا أبي ليس بيدي من الأمر شيء الآن، سامحني علي رضائي بالأمر الواقع، واغفر لي شهوتي مع فواز. في ديانتنا أرواح الأسلاف مقدسة، أطلب منك العون يا أبي ومن ملاكي الأعظم.

هل أخاطر بحياتي الآن من أجل الحرية؟ قد أخسر حياتي إذا فشلت محاولتي أو أخسر كل شيء اكتسبته، سأعود ساعتها جارية ذليلة بل وكافرة ونجسة، ساعتها سأنهي حياتي مثل مريم، يا ملاكي الأعظم لقد أصبحت مثل مريم ساعدني.

نعم لقد قررت، للحرية ثمن يجب أن أدفعه. ولكن للحرية لذة أخري، الحرية ليست فوضي كما كنا نعتقد، ولكن الحرية هي المساواة والعدالة بين الجميع، التعايش السلمي بين أطياف البشر المختلفة. لو أرادنا يزدان العظيم نوعًا واحدًا لفعل، ولكنه أرادنا جموعًا شتي لحكمة لا نعلمها.

دخلت علي الشبكة العنكبوتية، سعدت أن عدي غير متصل، كتبت له رسالة رجوته ألا يكتب شيئًا مما سيقرؤه، فقط أريد منه النصيحة، قصصت له قصتي كاملة، من حرب داعش وأسرهم لي حتى رضاء زوجي عني، فليفعل بي الملاك الأعظم ما يريد.

عدت إلي سريري، بكيت وكأنني وليد يأتي للحياة أول مرة.

عادت إلي ذكرياتي القديمة، تذكرت سفري مع فواز، كنت هادئة جدًا في رحلتي معه في الطائرة.. لم أتحدث معه إلا قليلًا، نبض قلبي خوفًا من التجربة الجديدة، سأتعامل مع بشر لم أتخيل يومًا أن أتعامل معهم، عرفت مسلمين من قبل ولكن هؤلاء سيصبحون أسرتي، أبلغني فواز أنه متزوج من ثلاثة، لم أعقب، فرحت، فسوف يقسم أيامه عليهن، لن يستفرد بي طول الوقت، كالعادة نظرت إلى نصف الكوب المملوء.

سكن فواز مقسم إلى ست شقق، كل زوجة في شقة، مع أولادها، والرابعة لي أما الشقتان الباقيتان، فواحدة لاستقبال

الضيوف الرجال، والأخرى له حين يحب أن يجلس بمفرده دون نسائه، الشقق كلها متشابهة، كل واحدة بها أربع غرف، واحدة للزوجة، واثنتان للأولاد والبنات مع الفصل بينهما، والأخيرة صغيرة وملحق بها حمام منفصل وهي للخادمة، وعدني بإحضار خادمة لي.

لم يعجبني الأثاث، فهو غالي الثمن دون تنسيق. مع أنني لم أرَ مثله في قريتنا ولكني كنت أتصفح علي النت صور أثاث البيوت عندما كنت أحلم أحلام المراهقة.

استقبلتني السيدات الثلاث بالقبلات، تأملوني جيدًا، فحصوني، رأيت في عيونهن تساؤلًا ماذا جعل الشيخ يعجب بها؟ أحسست بالغيرة في قبلاتهن ونظراتهن، لم أكترث، بادر فواز بالتعريف بنسائه، والأهم أنه أبلغني أن أم محمد هي سيدة المبني وعلي إطاعة أوامرها.

عرفهن بي، رغم أنهن يعرفن عني كل شيء، أخبرهن فواز بالنقال كل ما لديه من معلومات قبل أن نركب الطائرة، يبدو أنهن فضوليات، لم يكن يستشيرهن، ولكن ليتحاشى أسئلتهن، كما قال لي بعد أن أصبحت الأثيرة لديه:

ــ هذه شقتك يا سدرا، هل أعجبتكِ؟

ــ شكرًا لك سيدي.

لم ترق الإجابة ولا طريقتي في الحديث رضاء النسوة: النظر إلى الأرض، التحدث همسًا بصوت رخيم، تصنع الخجل. هكذا كان تحليلهن لي، صرخ فيهن فواز طالبًا الطعام، أسرعن كل إلى شقتها لإحضار ما طهته، عدن ووراء كل واحدة خادمة تحمل صواني الطعام.

جلسنا جميعًا، التهموا اللحوم بسرعة، ووقف الخادمات، كل وراء سيدته، اكتفيت أنا بالقليل، فنكهة الطعام هنا مختلفة عن بلدي، شجعتني آمنة على تناول الطعام:

ــ كلي يا ابنتي ولا تخجلي فهذا بيتك.

ــ يبدو أنها خجلى.

علقت علية مستنكرة، اكتفيت بالابتسام لهما، ابتسم فواز فالجو يبدو وديًا في مملكته وبين نسائه، أنهي الرجل طعامه فقمن جميعًا، أمرتني آمنة:

ــ اذهبي يا سدرا للشيخ وأحضري منشفة له.

قمت استجابة للأوامر، نظف الخادمات السفرة في لحظات معدودة، كانت اثنتان من الفلبين والثالثة حبشية سوداء، كان من العسير على أو علي أي أحد تحديد أعمارهن، سررن بي وكل منهن تمنت أن تكون الخادمة الرابعة من جنسيتها.

أمرني فواز بالدخول إلى غرفة النوم، دخلت نساؤه معه، خرجت

الخادمات وهن يبتسمن مكرًا، يعرفن ما سيحدث.

فوجئت بهن وقد هجمن عليَّ، كل واحدة تمسك طرفًا من أطرافي، تمامًا مثل المتطرفين الذين اغتصبوا أمي، نزع عني فواز ملابسي وسط بكائي:

ـ لماذا العنف يا سيدي أنا راضية.

فوجئت به يضربني علي خدي عدة مرات، غشي علي، اغتصبني بالقوة، أفاقتني علية بزجاجة عطر.

حملني نساؤه إلي الحمام، قمن بتنظيفي، فوجئت أنهن ينظفن دبري، فزعت، حاولت أم محمد أن تهدئ روعي:

ـ هو أمر بذلك.

ـ ولكن هذا حرام.

ـ الذنب عليه لا عليك.

جريت من قبضة زبيدة وعلية، ووقعت في شرك فواز، روض فواز فزعي بالسياط، نعم بالسياط، استحلفته أم محمد أن يكتفي:

ـ يكفي هذا يا سيدي.

ـ حتى تتعلم ألا تهرب مني.

أدخل عضوه في دبري لم أحتمل، أفرغت كل ما في جوفي، استقبلت زبيدة القيء الذي لصق بجسدها بلعني وسبي:

ـ الله يلعنك.

هبطت شهوة فواز، ارتدي ملابسه وتركني، هرولت زبيدة إلي الحمام حتى تنظف نفسها، رحل الشيخ مع علية وزبيدة، رجته أم محمد أن تبقى معي ولكنه رفض:

ــ دعيها كالكلب بمفردها.

رحلت أم محمد معهم، حاولت أن أفهم ماذا يجري؟ أين أنا؟ لماذا كل هذا العنف؟ أين المنطق في قسوته وقد أظهرت طاعتي وخضوعي.

بالطبع لم أجد إجابة، حاولت أن أهرب، رغم أنني لا أعرف أحدًا بهذه البلدة، إلا أن اللئيم فواز توقع ذلك فأغلق باب الشقة من الخارج، لم يعد أمامي سوي النحيب والبكاء.

في اليوم التالي جاءتني أم محمد بالطعام، أصلحت هيئتي المزرية، والأهم أنها هدأت من روعي، ولكني استقبلتها بعيون دامعة:

ــ أعلم يا ابنتي ما تعانين ولكن عليك الصبر.

ــ لماذا؟

ــ لأنه زوجك، وعليك طاعة أوامره.

زارني فواز مع كامل نسائه، وأشكر ملاكي الأعظم أصبت بنزيف مهبلي وشرجي، حضرت الدكتورة عنود زوجة محمد فهي مختصة بأمراض النساء وأمرت بذهابي إلى المستشفى وسط امتعاض وجه فواز وفزع زوجاته، حاول أن يعترض، ولكنها حملته مسئولية

حياتي فامتثل لها خوفًا من العواقب.

عنود شابة في أواخر العشرينيات جميلة ورغم صغر سنها إلا أنها حنونة مثل والدة زوجها.

استرحت في المستشفي من فواز وجنوده، أقصد نساءه، قصصت علي عنود ما عانيته، ارتحت لها، تحدثت معها وكأنها والدتي رغم صغر سنها، فهمت منها أن هذه هي العادات هنا، ضرب النساء ليطعن أزواجهن، نظرتهم للنساء تقتصر علي الرغبة والإنجاب فقط، سألتها عن زوجها محمد، ردت ضاحكة:

ــ الحمد لله لم يرث من أبيه هذه الطباع.

ترددت لحظات ثم واصلت حديثها مفسرة اختلاف سلوكه:

ــ ونحن درسنا في أمريكا، يمكن هذا غير كثيرًا من مفاهيمه، أو بمعني أدق أكد مفاهيمه الصحيحة عن النساء.

نفت عنود أن يكون الإسلام قد أمر بمثل هذه التصرفات الشاذة:

ــ إنها العادات، وقد ألبسوها ثوب الدين ليبرروا شذوذهم، إنها مجتمعات ذكورية يا عزيزتي

دهشت للهجتها وجرأتها في نقد نظام مجتمعها ونقد سلوك أفراده، تمنيت أن أكون هي ولكن في بلدي سوريا.

انزعج فواز كثيرًا من عنود عندما أرسلت لي الطبيب النفسي:

ـ كان يجب عليك أن تستأذنيني يا عنود قبل أن تحضري رجلًا غريبًا ليرى زوجتي.

ـ عمي إنه طبيب، وهي مسئوليتنا طالما هي في المستشفي.

لم يضف لي الدكتور جمال شيئًا، فقط كتب لي بعض المهدئات، وطالبني بالصبر. إنه مثلهم ذكوري مطوع. هو فقط يتكلم بصورة مختلفة. وقد تصادق سريعًا مع فواز، عندما أيقن فواز أنه من نفس الطينة، فاطمأن إليه.

أيقظتني نوبا من شرودي كالعادة، إنها الصلاة.

- 10 -

يا ملاكي العظيم، رد عليّ عدي، أثار في نفسي الهواجس، كتب لي:

ـ أعلم ما تعانين ولكني أدهش من قبولك له.

وأضاف مستنكرًا:

ـ كان والدك يقص عليَّ في خطاباته أنك مختلفة منذ أن كنت طفلة تحبين العلم ولست خانعة خاضعة مثل الأخريات.

ثم عاد يخفف من كلامه:

ـ أعلم أن ظروف الخطف والبيع لا دخل لك بها، ولكني استنتجت من خطابك أنك قد تكونين راضية بنصيبك، فإذا كنت ترغبين المساعدة في الهروب فأجيبي بصراحة: نعم أم لا؟

لم أفكر، أرسلت له رسالة بنعم، وأبديت استنكاري من فهمه بأني راضية بالعبودية، أريد أن أستعيد اسمي وديني، وأذهب إلي مكان آخر إلى أن يتحرر وطني.

نعم كتبت لك أن زوجي راضٍ عني الآن، ولكني غير راضية عن نفسي، أنا أريد الحرية حتى ولو كان الثمن حياتي. ولطالما حلمت بالحرية، الهروب من القرية ومن سوريا كلها إلى عالم جديد متحضر.

صدقني الآن أنا علي استعداد للرجوع إلي سوريا إذا تمكنت من ذلك، والحرب ضد الاثنين النظام الغاشم ومتطرفي داعش.

بعث لي برسالة بعد أيام يسألني إن كان ممكنًا أن أسافر تركيا؟ فهناك يمكنه أن يساعدني.

تساءلت في نفسي كيف؟ هل يمكنه فعلًا تهريبي، وفواز ماذا سيفعل؟ وأين سأذهب؟

أسئلة لم أجد لها إجابة، زادت همي، هل تسرعت بالحديث مع عدي؟ وهل هو فعلًا عدي أو شخص وهمي منتمٍ إلي أي من الأجهزة المخابراتية؟ أصبحت شكاكة وقلقة.

لاحظ زوجي شرودي وهمي، أكدت له أن لا مكائد من نسائه، احترت أن أخبره السبب، هداني ملاكي إلى حجة قوية:

ــ أخشي أن أكون عقيمًا.

ارتاح بعد هذه الإجابة، وزاد في تدليلي، زرت معه كل طبيبات النساء، بل وكسر حاجز الغيرة فزرنا أطباء ذكورًا، الجميع أجمع أنه لا توجد مشكلة، وأن علينا الصبر، لم يشك أحد في الكبسولة فهي غير منظورة وتحت جلد يدي:

ـ هل اطمأن قلبك يا صغيرتي؟

ـ أخاف أن تطلقني أو تطلق أحد نسائك من أجل الأولاد.

أجاب مستنكرًا:

ـ أنا؟

رغم فرحه من غيرتي وشكوكي، إلا أنه أظهر لي غضبه، ولم أجد بدًّا من مصالحته بليلة حمراء كليالي ألف ليلة وليلة، سحرته وأذهلته، رقصت له، فعلت كل ما في جبعتي لإرضاء غروره، خر ساجدًا لي اعترافًا منه بحبه لي، جعل نفسه عبدًا لي، سألني:

ـ سيدتي وملكيتي ماذا تريدين لأحققه لك.

ـ أن أحمل يا سيدي.

ـ وهل لي من الأمر شيء؟

ـ نعم.

ـ كيف؟

ـ إذا سمح سيدي أن نسافر عندما تسمح ظروفه لأعرض نفسي علي أطباء آخرين؟

ـ والله لن أتزوج أخرى.

استعملت دلالي وقوتي الأنثوية:

ـ عبدي لا تجادلني لقد وعدت.

ـ وأنا علي وعدي.

أدرت ظهري وفتحت دبري مكافأة له، تردد خوفًا وحبًا، حسمت الأمر:

ــ عبدي أنا أريد ذلك، أطفئ شهوتي أرجوك.

لم يتحمل المسكين صوتي، وللأسف تمتعت ولأول مرة بهذه الممارسات الشاذة، هل أصبحت أنا أيضا شاذة؟ لا أدري.

جن بي فواز بعد هذه الليلة، أصبح يأتيني يومًا بعد يوم، يومًا لي ويومًا لباقي نسائه، حاول أن يروي عطشه مني، ولكني زدت عطشه لي، فكل يوم لدي جديد.

تقبلت نساؤه الأوامر الجديدة، اعتزلته أم محمد لانقطاع الدورة عنها ولانعدام الرغبة لديها، فأصبح اليوم الآخر يقسم بين علية وزبيدة، وإن كان يحلو له أن يذهب إلي أم محمد ليرتاح منهما وليستعد لي.

استغلت خادمتي الوضع الجديد، فترأست باقي الخادمات، باعتبارها تخدم الزوجة الأثيرة للشيخ، طالما نصحتها ونبهتها ألا تفعل:

ــ سيدتي أنا أرد ما فعلوه سابقًا بي.

طلبت منها ألا تقترب من سيني خادمة أم محمد الهندية، فبالإضافة لمكانة أم محمد عندي، كانت سيني طيبة كسيدتها. سيني من الهندوس، قاومت العصي ورفضت الجزرة، لم تغير دينها حتى

ولو ظاهريًا، فرغم محاولات أم محمد معها لإقناعها بالإسلام ورغم حبها لأم محمد، كان ردها درسًا لي:

ــ سيدتي كان يمكن لي أن أتظاهر بالإسلام كما فعلت ليني خادمة السيدة زبيدة، والتي تحولت من المسيحية للإسلام من أجل إرضاء سيدتها، ولكنها ستعود لدينها عند العودة إلي الفلبين.

ــ وما منعك من فعل مثلها؟

ــ لأني أحترمك سيدتي، لا أريد أن أخدعك وأحترم نفسي حتى وإن كنت خادمة.

عندما قصت عليَّ أم محمد هذه الحكاية تمنيت أن أكون خادمة وشجاعة مثل سيني. ولكن حتى لا يظلمني أحد، سيني جاءت هنا برغبتها، أو بالأحرى مضطرة من أجل المال، أما أنا فلم يكن لي في الأمر حيلة.

أصررت على حفظ مكانة أم محمد كما أصررت علي حفظ مكانة خادمتها، ولم أبالغ في إثارة غيرة باقي نسوة فواز، يكفي ما يفعله هو، يقبل يدي أمامهن علي غير عادة ناس هذه البلاد، يناديني بسيدتي أمامهن أيضًا، وإذا طلبت أو تكلمت لا يقل لي إلا سمعًا وطاعة يا حبيبتي.

الغريب أن أم محمد يعجبها حال فواز، وتبريرها أغرب:

ــ حتى يذوق طعم الحب الذي عانينا منه معه.

أدهش لحال هذه المرأة ولا أفهمها جيدًا، هل هي متدينة كما هو ظاهر؟ هل هي مع سيادة الرجل للمرأة حسب ما تعتقد هي؟ هل هي مع سيادة فواز علينا، لماذا إذًا هي سعيدة بتمرد فواز علي ما كان يفعله سابقًا؟ هل آمنت فجأة مثلًا بحرية المرأة؟ لا أدري.

ضيقت علي زيارة فواز المتكررة متابعتي لعدي علي شبكة التواصل الاجتماعي، ومنعتني من حديث الذكريات السيئة، ففواز يومًا عندي واليوم الآخر يرتاح جسدي من غزواته.

سيأتي الفرج، أحس بذلك، طالت الأيام أم قصرت، جاءتني الفرصة من الاستراحة من فواز بمجيء العادة الشهرية.

يأتي فواز فقط دقائق لينعم بقبلة ورؤية وجهي كما يقول، انتهزت الفرصة وبدأت حديثًا مع عدي، حديثًا أثار فيَّ همومًا وشجونًا قديمة:

ــ هل مازلت إيزيدة؟

ــ طبعًا، بطريقة سرية.

ــ أنا ملحد هل تعلمين ذلك؟

ــ لا.

ــ وأيضًا ماركسي.

صمت فاسترسل في كتابته:

ــ مع مراعاتي لمشاعرك لا أستطيع تقبل خرافاتكم كما لا أستطيع

تقبل خرافات باقي الأديان.

ــ ولكن الكون لابد له من إله ينظمه.

ــ أولًا أحب أن أسألك لماذا الإيزيدي فقط من يولد من أبوين إيزيدين؟ هذه عنصرية.

لم أستطع أن أرد، فواصل هجومه:

ــ كما أنها ديانة غير تبشيرية، محرم عليَّ أحد أن يدخلها، أي أنها حصرت المؤمنين علي مر التاريخ فقط في جماعة صغيرة جدًّا من البشر.

ــ ولكننا لا نكفر الآخرين؟

ــ من قال لك هذا، هذا كلام للعوام حتى لا يحدث صدام لأنكم دومًا أقلية.

لم أستطع الرد أيضًا:

ــ لو كنتم أغلبية لرأيت العجب العجاب، مثلا لو أن مسلمًا استعاذ بالشيطان يجب قتله، ولأنهم لا يستطيعون قتله لا يقتربون من المساجد ويغلقون آذانهم عند سماع أي إشارة للعن الشيطان.

صدمت فخرست ولم أرد:

ــ أقرأت كتاب الجلوة؟

ــ لا.

ــ هل تقتنعين بخلق بعض الناس من نور الملائكة؟ مثل خلق

الشيخ أدي من عكس نور الملاك الأعظم طاووس؟ وزرادوش النبي من عكس نور الملاك جبرائيل؟

أكملت أنا:

ــ والشيخ شمس الدين من عكس نور الملاك إسرافيل.

ــ تعرفين الباقي بالطبع، ثم ما هذه القصة الغبية التي تتداول عن طاووس بك؟

ــ وهل تعجبك قصة الديانات الإبراهيمية بأنه أساس الشر؟

ــ بالطبع لا.

لم أستطع أن أكمل معه، تحججت بالظروف فأنهيت النقاش. بكيت، ألا يكفيني ما أنا فيه، لماذا يا عم عدي تعبث في معتقداتي؟ قديمًا لم أفكر في مثل هذه الأمـور، ولكني كنت معترضة علي التقسيمات الاجتماعية للطائفة، كانت أمي دائمًا تنهرني ليس فقط علي المجاهرة بهذا، بل تنهرني في التفكير في مثل هذه الأمور.

سمعتها سابقًا في نقاش مع والدي ينهرها من قهري:

ــ أعلم أن عدي لعب برأسك، ولكن دع ابنتي وشأنها.

ــ إنها تحاول أن تفكر.

ــ لا تفكير في الأمور الدينية.

يا عقلي؟ لماذا لم أنتبه إلى ذلك من قبل؟ هل كل المؤمنين متشابهون؟ المسلمون مثل المسيحيين، مثلنا مثل أي ديانة أخرى.. يكاد رأسي أن

ينفجر.

هل التفكير في هذه الأمور رفاهية؟ لا أدري، وهل أملك سوي رفاهية الطعام والجنس؟!

احتقرت نفسي كثيرًا عندما جال في خاطري الجنس.

يجب أن أحدد ما أريد. قرأت كتبًا دينية من قبل، لماذا لم أقرأ كتبًا إلحادية؟ كما أنني لم أقرأ كتبًا ماركسية من قبل، سأبحث في الشبكة العنكبوتية عن هذه الكتب. ولكني سألت نفسي سؤلًا مهمًا:

»هل سيؤثر ذلك علي قراري بالهروب«.

لم أستطع أن أجد إجابة فلقد دخلت علي نوبا بخبر سيئ.

- 11 -

انتفضت فزعة من صراخ نوبا:

ـ أدركي يا سيدتي أدركي يا سيدتي..

ـ ماذا حدث؟

ـ سيدي الشيخ فواز متعب وابنه محمد عنده.

ـ أين؟

ـ عند سيدتي أم محمد.

ارتديت العباءة وهرولت إلي أم محمد، أولا لأطمئن، وثانيًا لأن تأخيري سيحسب عليَّ.

كنت بالفعل قلقة علي الرجل، لو حدث له شيء، سأعجز عن الخروج من تلك البلاد، يا ملاكي العظيم كن معي.

هرولت إلي سريره، أتساءل ماذا حدث، طمأنني أنه بخير. بكيت عليه وعلي حالي، بكيت بشدة جعلت كل الموجودين بالغرفة يتركون المريض ليهدئونني.

علمت ما حدث، لقد استقال الشيخ من عمله إثر مشاجرة مع مديره، فارتفع ضغط دمه، يؤكد الدكتور محمد أن والده يعاني من ارتفاع الضغط من قبل ولكنه كان يهمل التعليمات الطبية، محمد شاب في نهاية العشرينيات، ورث من أمه وجهًا جميلًا مشرقًا.

اجتمع بنا الطبيب وطلب منا عدم إثارة أعصابه، وعدم إثارة أي مشاكل له، وتردد كثيرًا قبل أن يطلب منا إراحته جسديًا:

ــ أعتذر ولكن والدي ينبغي له الراحة، الإفراط في العلاقة الزوجية غير مطلوب.

نظر لي الكل باعتباري ملهمة الشيخ وامرأته الأثيرة، نادانا الشيخ فهرعنا جميعًا نلبي نداءه:

ــ أنا بخير، لا تبكي يا سدرا، لا تبكوا جميعًا.

ــ المهم الراحة يا والدي.

ــ حاضر.

ــ والدواء لقد أعلمت أمي بمواعيده.

ابتسم الشيخ حزينًا ومسك يد أم محمد راجيًا:

ــ هل يمكن لسدرا أن تكون معك يا أم محمد لخدمتي.

ــ طبعًا يا سيدي.

ــ ولكن يا والدي مطلوب لك الراحة.

ــ لا تخشي شيئًا يا دكتور سوف أخدمه أنا ووالدتك وباقي

الأخوات فقط.

انحني محمد وقبل جبين ويد أبيه وانصرف.

لم أنم أسبوعًا في منزلي، حاولت جاهدة ألا أثير غيرة أي من النساء حتى وإن اعترفنا بمكانتي عند الشيخ، وبالطبع راعيت مكانة أم محمد وقدمتها علي نفسي في كل شيء، فهي بالنسبة لى خط أحمر لا يجب أن أتعداه بالإضافة إلي حبي لها.

اقتربت من علية وزبيدة، جمعتنا الشدة، تعمدت أن أكذب عليهما:

ــ سيدي يسأل عليك يا زبيدة.

فتدخل فرحة لأن فواز تذكرها وطلبها، وكذلك الحال مع علية، كانت أم محمد فطنة لما أفعل:

ــ ما تقولينه جيد، الكذب الأبيض لا يضر.

تحسن حال الشيخ واستطاع أن يقوم من علي فراشه والحركة بحرية، جمعنا جميع نسائه للتباحث في ما حدث، في البدء طلبت منه أم محمد الراحة وأعادت عليه توصيات ولده الطبيب، استأذنت في الحديث:

ــ بعد إذن سيدي، وإذن أم محمد، وإذن باقي الأخوات لدي اقتراح..

ــ قولي يا سدرا.

ــ اقترحى يا أم محمد أن يأخذ الشيخ راحة يومين بعد كل لقاء

معنا.

ــ بمعنى؟

ــ معك ثم راحة يومين ثم مثلًا زبيدة ثم راحة يومين وهكذا.

نظر لي فواز معاتبًا، فعاجلته:

ــ كل نسائك يا سيدي يريدونك أن تبقى معهن كل يوم، ولكن هذه الراحة للمحافظة علي صحتك وحياتك غالية علينا جميعًا.

استحسنوا جميعًا الفكرة وشكروني عليها وقررنا أن أيام الراحة ستكون عند أم محمد التي لن ترغب أبدًا في إجهاد فواز.

أراد الشيخ فتح موضوع آخر ولكنه تحرج، ولكن بدأت أم محمد الكلام:

ــ أبو محمد يتحرج من الكلام! ولكن لا حرج فنحن أقرب الناس إليه.

جلسنا كلنا صامتات، نترقب ماذا ستقول:

ــ من الناحية المادية سوف يقل الدخل، لأن الراتب سوف يصبح معاشًا.

ــ ولكن ألا توجد لدى سيدي موارد أخرى؟

ــ لا أريد أن أتصرف في ما ورثته يا زبيدة فهذا لكم وللأولاد بعد موتي.

صرخت النساء جميعهن في آن واحد:

ـ حفظك الله يا سيدي.

لم أتكلم ولم أعلق، فكرت في صعوبة سفري بعد تغيير الأحوال المادية ولكني استأذنت في السؤال:

ـ ألن يعطوك يا سيدي مكافأة نهاية الخدمة؟

ـ بلى يا سدرا.

ـ عندي اقتراح لو أذن سيدي.

أشرأبت لي الأعناق متطلعة قلقة من اقتراحي:

ـ سيدي يحب العمل والرسول عليه الصلاة والسلام.

قاطعوني جميعًا:

ـ عليه الصلاة والسلام.

ـ قال إن تسعة أعشار الرزق في التجارة، فلماذا لا تبدأ نشاطًا تجاريًا يا سيدي بهذه المكافأة.

ـ فكرة جيدة يا سدرا ما شاء الله عليك يا ابنتي.

ـ شكرًا يا أم محمد ولكن سيدي لم يرد.

ـ لن تكفي لبدء مشروع محترم.

بادرت أم محمد:

ـ يمكنك أن تأخذ ذهبنا.

ـ وهل أتكسب من ذهب النساء؟

ـ يمكنك إدخالنا شركاء معك.

ــ ولكن أي مشروع؟

اقترحت علية مشروعًا للطعام، ولكن فواز اعترض لأنه ينبغي له تواجد دائم لمراقبة العمال كما أخبرها أن مشاكله كثيرة، اقترحت زبيدة قرطاسية، اقترحت أم محمد متجرًا للملابس، سألني فواز:

ــ وما اقتراح صاحبة المشروع؟

ــ كل هذه الاقتراحات تطلب إشرافًا دائمًا حتى لا يسرق أحد شيئًا، ولكني أقترح شيئًا آخر؟

ــ ما هو؟

ــ كما قالت أم محمد ملابس وخصوصًا النسائية وملابس الأطفال لا غني عنها.

قاطعتني علية:

ــ متجر للملابس!

ــ أنا لم أقل ذلك.

نظروا لي في دهشة فواصلت كلامي لكي أفسر لهم:

ــ البيع بالتجزئة أربح ولكنه يأخذ وقتًا ومجهودًا.

صرخ فواز فرحًا:

ــ ملابس بالجملة فتح الله عليك.

ــ الأفضل يا سيدي أن تستورد تلك الملابس، فهي لا تتلف وستتخلص من البضاعة بسرعة ويعود لك رأس المال سريعًا مع

قليل من الربح وباقي الربح يكون آجلًا.

دهشوا من ترتيبي للأفكار ومن معرفتي الاقتصادية فأوضحت لهم أن أبي كان تاجرًا بسيطًا بجانب عمله كمزارع، وأنني كنت أساعده. هنأتني أم محمد علي أفكاري، سرت الحياة في جسد فواز فرحًا بي، أعلن خبرًا سارًا لي:

ــ سأشرع في فتح المكتب وسأصحب سدرا في أول رحلة لي مكافأة لها علي الفكرة.

وجمت زبيدة وعلية فاستدرك فواز:

ــ وفي كل رحلة عمل تالية سأصحب واحدة منكن.

- 12 -

اتفقن جميعًا أن يستمر جلوس فواز عند أم محمد بعد شفائه ونزوله حسب الجدول لرؤية أولاده وإرضاء زوجاته شرعيًا لمدة ساعة واحدة فقط، الكل رحب باقتراحي فنحن نأتمن الأقل رغبة على رجلنا، كما أنها الأكثر احترامًا والزوجة الأولي له.

أتاح لي ذلك الحديث مع عدي، بشرته بإمكانية السفر ولكن لا أعلم إلي أين. مارس عدي قهره لي بالبحث في رأسي عن معتقداتي، أفزعني رده حين أبلغته عن حال نساء المسلمات هنا:

ـ وهل حالهن عندكم في الإيزيدين أحسن؟

واصل هجومه الوقح علي مكنونات عقلي:

ـ هل تتذكرين دعاء، التي قتلها شبابكم المهووس دفاعًا عن الشرف حين أحبت عراقيًا مسلمًا؟

ـ لم أسمع بها.

كذبت حتى أستريح منه، أتذكر حادثة دعاء جيدًا، لم أعرفها

بالطبع فهي عراقية. ففي يوم بعيد من عام 2007، دار نقاش عنيف بين أبي وأمي، كان والدي غاضبًا جدًا مما حدث، أثارته والدتي بقولها:

ــ إنه دفاع عن الشرف.

ــ وما لفرق بيننا وبين من يئد ابنته في الصحراء درءًا للعار.

ــ لو أن كولي أحبت مسلمًا ماذا ستفعل؟

ــ حتى لو أحبت بن لادن نفسه، ما دام خيارها.

ــ يا رجل وكيف نعيش؟ كيف يعيش أخواها والعار علي رؤوسهما؟ وأشكر الملاك الأعظم أن بن لادن ميت.

الآن فهمت موقف والدي، نادر جدًا أن يصادفك القدر بمثل هذا الوالد، رغم عدم تعليمه، والأدهش أنه كان متدينًا جدًا. ولكنها الحرية، نعم الحرية التي آمن بها أبي، ولم أفهمها أنا وأمي، الحرية ليس لنفسه فقط، بل للجميع، حتى ابنته، من حقها حرية اختيار الحبيب، حتى ولو خرجت من الدين، الدين الذي يؤمن به، لا أدري موقفك يا عدي لو كنت مؤمنًا، أغلب المثقفين يؤمنون بشيء ويفعلون آخر، إلا أبي، إيمانه بأفكاره فطري، ربما ورثت هذا منه.

عاد عدي يزعجني بحديثه عن حال المرأة الإيزيدية، سألني كيف قتل الأمير تحسين حفيدته دفاعًا عن الشرف أيضًا، يا ملاكي حتى الأمير لم يسلم منه؟

أصابني بالصداع وأنا أقرأ إحصائيته عن تقارير المؤسسات الدولية علي العنف ضد المرأة الإيزيدية في إقليم كردستان بالعراق، سألته عن دين أولاده لأهرب من درسه السياسي:

ــ لدي ولـدان وبنت، اتفقنا أنا وزوجتي ذات الأصول البروتستانتية ألا نعلم الأولاد شيئًا من الدين

ــ ولكن ماذا يفعلون في حصص الدين؟

ــ الدين هنا اختياري وكذلك حصصه، عندما يكبرون يختارون هويتهم الدينية.

ــ ولكنهم الآن ليسوا إيزيديين.

ــ أنت من أثرت الموضوع. أي عنصرية أن أصبح إيزيدى، يجب علي أن يكون والداي الاثنان إيزيديين، إنها قمة العنصرية بدعوي المحافظة علي العرق.

ــ معك حق.

ما إن كتبت هذه الجملة حتى واصل هجومه:

ــ إنكم أشد عنصرية من النازيين ومن اليهود.

قطعت اتصال الشبكة العنكوبتية وكأنه لسبب خارجي، سأعتذر له فيما بعد، ولكن أحتاج إلي راحة حتى أهضم كلامه.

فاجأني فواز وأنا أسترخي من هجوم عدي بمجيئه، إنها ساعتي، حاولت ألا أرهقه، مثلت وأعلنت صراحة أنني في قمة النشوة حتى

يرحل ولكنه يطلب المزيد.

أرسلت الخادمة سرًا إلي أم محمد حتى نجعله يرحل، تصنع فواز الغضب عندما رأي حارسته:

ــ أنا غاضب منك يا سدرا.

هويت علي قدميه، بكيت واستعطفت، ساعدتني أم محمد:

ــ إنها أكثر نسائك حبًا لك فهي تخشي علي صحتك.

ــ ولكني لم أشبع منها بعد.

ــ وهل تستطيع أن تشبع من ينبوع الجمال هذا يا سيدي؟

احمر وجهي خجلًا من تقريظ فواز وزوجته لي، تماسكت، أرضيت غروره:

ــ كما أنني يا أم محمد استكفيت، بلغت الذروة مرات عديدة.

كان كلامي بلسمًا شافيًا لغرور الرجل، انسحب إلي الخارج، شكرتني أم محمد:

ــ شكرًا لك يا ابنتي علي إرسالك الخادمة لي.

ــ كلنا نعلم أنه لن يستجيب إلا لكِ.

ارتاحت المسكينة لهذا الإطراء ولكني واصلت:

ــ ولكن هناك شيئًا آخر.

ــ ما هو؟

ــ أنت أكثرنا حبًّا للرجل حتى إنك تضحين بيومك من أجل

راحته.

ـ لقد كبرت.

ـ في الغرب، مثلك لم تتزوج بعد.

احتضنتني بقوة، أشعر بالأمان في حضن هذه المرأة، أو ربما لي ميول شاذة مثل خديجة، تذكرت خديجة ويا ليت ما تذكرتها، ماذا تفعل الآن؟ وفي أي بلد، أهي بجواري بشارع مثل مريم، أم في مدينة بعيدة، أو في قطر آخر؟

قررت أن أستريح لبرهة من عناء التفكير، ولكن دون إرادة مني فكرت في ما قاله عدي، تساءلت لماذا يحاول الملحدون هدم عقائد الناس دون إيجاد بديل؟ نعم بديني عيوب كثيرة: نظام الطبقات، عدم التبشير، يعتمد علي فلسفة رفض طاووس بك للسجود لآدم وهذه قمة التوحيد في رأينا، ولكنها فلسفة صعبة لا يتقبلها الآخرون، لا أدري هل يوجد دين بلا عيوب؟

هل يمكن أن يكون الكون سرمديًا بدون إله، لا أعتقد هذا، عدم وجود إله معناه أن من خطفني، وقتل أسرتي لن يحاسب، كدت أجن لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في هذا الموضوع، ولا أجد إجابات، ولا يوجد من يساعدني هنا، أين أنت يا أبي؟ أنت الوحيد الذي كان سيقدم العون لي دون مصلحة.

حاولت أن أهرب من التفكير بأن أشاهد التليفزيون ولكن لم يكن

هناك شيء جاذب، أمرت خادمتي أن ترتدي عباءتها لتأتي معي:

ــ إلي أين يا سيدتي؟

ــ سأزور زبيدة وعلية.

بهت وجه الخادمة وكأنها والدتي سمعتني وأنا ألعن أحدًا!

فوجئت زبيدة بزيارتي أيضًا، لا أدري ما الذي جعلني أقرر زيارتها، هربًا من التفكير، أم أنني سأفتقدهم عندما أهرب، ضحكت في سري، كأنني سأهرب غدًا، أو كأنهم أهلي!!

لاحظت زبيدة أنني ألهو مع أطفالها، بالتأكيد خمنت أنني أتحسر بسبب عدم الإنجاب:

ــ الأولاد نعمة ولكنهم مزعجون.

ــ ما شاء الله أولادك لطفاء.

فوجئت باحتضانها لي، وفوجئت بدموعها تنساب بغزارة:

ــ سامحيني علي ما سببته لك من أذي.

ــ لا عليك الآن نحن أختان.

زاد بكاؤها:

ــ فعلًا صدقت أم محمد عندما وصفتك بالملاك.

لدي زبيدة طفلة جميلة ذات خمس سنوات، جعلتني أتذكر نفسي عندما كنت في مثل عمرها، اسمها زينب، تبكي زينب لأنها تريد أن تخرج مثل أخيها يحيي، تساءلت:

ـ لماذا لا تخرجينها تلعب.

ـ يا للمصيبة! هذه حرمة.

ـ لماذا؟

ـ لأنها عادتنا وقيمنا.

ـ ولكنها طفلة!!

يا ملاكي الأعظم حتى المؤنث من الأطفال مضطهد، مسحت دموع زينب، لعبت معها لعبة الاختباء، علمتني أيضًا لعبها، قضيت وقتًا جميلًا مع زينب، فوجئت بزينب تقول:

ـ أنت كويسة يا عمتي، لماذا تسبك ماما؟

حميت زينب من العقاب، واستحلفت زبيدة ألا تعاقبها بعد خروجي، وطلبت منها أن آخذ زينب اليوم تقضي الليل معي فوافقت دون اعتراض.

كان علي لزامًا أن أزور علية، وأن أصطحب معي ابنتها الصغيرة عائشة، ذكرتني بعائشة زميلتي في الأسر، هونت عليَّ زينب وعائشة معية التفكير، كانتا سعداء بي كما كنت سعيدة بهما. زادت أواصر المحبة بيني وبين زبيدة وعلية، فرحت أم محمد بما فعلت وكذلك ابتهج فواز جدًا.

الأهم تأكد الجميع أنني بحاجة للسفر للعرض علي مختص لحل مشكلة عدم الإنجاب.

- 13 -

حاول فواز أن ينهي الإجراءات الإدارية ليبدأ عمله الجديد. ولاحظنا كلنا تحسن صحته، وقد انتظم علي القليل من الواجبات الزوجية من منطلق الحفاظ عليها، والأهم أنه ابتعد عن استعمال المنشطات الطبية والشعبية.

شغلتني زينب وعائشة عن أي شيء، ورغم ذلك عادت بي الذكريات القديمة الأليمة، لا أدري ما السبب.

سرحت في الماضي القريب، حين كان فواز مازال غاضبًا عليَّ، تذكرته هو ونساؤه وما فعلوه بي، إنها ذكريات أليمة.

رغم تحذير الطبيبة عنود لفواز من معاشرتي بسبب النزيف، إلا أن فواز لم يصبر، أخذني بالقوة، كنت جثة هامدة فلم يستمتع، تكرر فعله كثيرًا وتكرر موتي أكثر. نصبت زبيدة وعلية حربًا ضروسًا ضدي، أثارتا الشيخ عليَّ بكلام من قبيل، »إنها مازالت كافرة، سمعتها تتمتم بكلام غير مفهوم، احذر يا زوجنا العزيز«، فازداد

غضب فواز عليّ، وأصبح الضرب روتينًا يوميًا.

حتى تدخلت السيدة الطيبة أم محمد، أمرت السيدتان بالكف عن الكلام ضدي في حضور فواز، وطلبت منه مهلة شهرًا لا يزورني فيها.

جلست معي عدة مرات لتعلمني كيف أستطيع أن أمتع زوجي، الغريب أنها لم تعلمني كيف أستمتع، وكأني لست بشرًا، أحضرت لي شرائط تعليمية من ولدها محمد، أدمنت العادة السرية في هذا الشهر.

جاءني فواز، تركته يفعل ما يريد، تذكرت ما في الشرائط، زاد غنجي فسر الرجل، قبلت قدمه أن يؤجل باقي ممارسته الشاذة ولكنه رفض، وبرغم ألمي الشديد، إلا أنني كررت فعلتي في التفكير في الشرائط التعليمية، وما إن هدأ، هرعت أفرغ ما في جوفي تقيؤًا من فعل هذا الإنسان في دورة المياه.

مع الأيام قل الضرب، وزادت خبرتي، وزاد غروره وسعادته، إلي أن أصبحت الأثيرة لديه بعد معاناة عام معه، لا أدري هل تذكرت ذلك لأبرر لنفسي الهرب؟ لا أدري، جاءني بنوبا كخادمة، كانت تعمل عند محمد وعنود، تنازلا لي عنها تعاطفًا معي، ولتخفيف آثار معاناتي مع فواز، رغم أني زوجة والد محمد إلا أنه كان إنسان مثل زوجته وأمه.

حسمت أيضًا نقاشي مع عدي بجملة واحدة:

ـ عمي كيف يستطيع الأسير أن يكون حرًا في خيارته، لا أستطيع أن أفكر في رفاهية الأديان وأنا لست أنا. عندما أتحرر يمكنني أن أمارس لذة التفكير والاختيار، لكن حتى ذلك الحين فأنا في العلن مسلمة وفي السر إيزيدية.

كان قولًا فصلًا، فلم يستثر عدي شكوكي عن الدين بعد ذلك، سألني فقط عن موعد السفر، فنفيت له علمي به، قصصت عليه ما حدث من أمر فواز، طلب مني طلبًا واحدًا:

ـ حاولي أن يكون سفرك لتركيا فحركتي ستكون أسهل هناك.

حذرني من السفر لأي بلاد عربية، سألته عن السبب:

ـ إنهم لا يعاملون مواطنيهم علي أنهم بني آدميين، فهل سيتفهمون قضيتك؟

شغلني عدي مرة أخري بكلامه، لكني قررت أن أنتظر انتهاء فواز من إجراءاته الإدارية لإشهار مكتبه، ويا له من روتين! في سوريا المزيد من الموافقات الأمنية لكن هنا يمكث الطلب في مكتب الموظف أسبوعًا أو اثنين حتى ينظر فيه هكذا قال لي فواز.

وطدت علاقاتي بزبيدة وعلية، وبزينب وعائشة، رأيت الدموع في عيون فواز وأنا ألعب مع الطفلتين:

ـ أتحبين الأطفال لهذه الدرجة؟

ـ إنهم ملائكة، يحرسهم الله ويحفظ سيدي.

بالطبع لم أنسَ أم محمد، ليس لأم محمد سوي ابن واحد وشقيقتان متزوجتان. طلبت من أم محمد زيارة عنود زوجة محمد، أخيرًا وافق فواز أن أخرج لزيارتها. هذه أول مرة أذهب خارج المنزل إلى مكان آخر غير المستشفي. تخاف أم محمد كثيرًا علي ولدها وتعتز به، قالت لي سابقًا: ـ إن فواز تزوج عليها لأنها أنجبت طفلتين دون تكرار إنجاب الذكور.

لعنود طفل جميل لم يكمل عامه بعد، فقد تأخرا في الإنجاب من أجل إنهاء الدراسة، طمأنتها علي حالي، وشكرتها علي مساعدتها السابقة، كان لقاء حميميًا بيني وبينها وبين والدة زوجها. سألتني عن الوضع في سوريا، سألتني عن طائفة الإيزيديين، لم تستوعب أم محمد فكرة التوحيد الخاصة بالملاك الأعظم، لعنته كثيرًا، واختبرت وجهي، اضطررت إلي لعنه حتى أتفادي نظراتها.

سألتني أم محمد صراحة عند عودتنا إذا كنت مازلت أحن لمعتقداتي القديمة، نفيت بالطبع وأخذت أعدد لها مساوئ الدين الإيزيدي، استعنت بكلام عدي عن مساوئ الدين الإيزيدي، أخيرًا كان لكلامه قيمة. اطمأنت أم محمد واعتذرت عن وساوسها، بررت لي بأنها أحست بشيء عند مناقشتي مع عنود، وأنها تطمئن عليَّ فقط لأنها تعتبر نفسها والدتي.

راجعت نفسي ودهشت من غبائي، كيف أكشف نفسي هكذا؟

كان حواري حوار مدافع عن الإيزيدية، وليس حوار مسلم، أتمني أن تقتنع أم محمد ببراءتي.

سارت الأيام بطيئة، ذهبت لأم محمد كثيرًا حتى يطمئن قلبي، شكرت الملاك الأعظم أنها نسيت هذا النقاش الغبي، إلي أن جاء الفرج.

بشرني فواز في ليلته معي أنه افتتح المكتب، سنسافر خلال شهر، تجاوزت التعليمات الطبية هذه الليلة، رقصت له، داعبت عضوه بيدي ولساني، جعلتها ليلة حمراء، والأهم غنجت غنجًا يكفي لإرضاء رجال المدينة كلهم، في ذروة نشوة فواز سألته أن نسافر تركيا فوافق:

ــ هل تفتقدين أيامك هناك.

ــ يكفي أني رأيت سيدي هناك.

ازداد زهوًا بنفسه وواصلت الهجوم:

ــ وأنا عند اليهودي قالوا لي إن الأطباء الأتراك متميزون في طب النساء.

ــ هل عرضت نفسك علي أحد من قبل.

ــ علي طبيبة المعسكر لعدم انتظام المرض الشهري.

ــ إذًا تركيا نسافر نتفق علي البضاعة ونجري لك الفحوص ونجلس سويًا ننهل من العسل أسبوعًا.

أمسكت أعضاءه التناسلية برقة وقوة في نفس الوقت، وبدلال أنثوي علمني إياه الزمن:

ــ لا يكفيني من هذا أعوامًا.

وسلمت نفسي له مرات أخري لأكافئه علي عطاياه.

أخبرت عدي بموعد ومكان السفر، طمأنني. لا أعرف لماذا دقات قلبي سريعة، أكيد هو الخوف، ولكن الخوف ممن؟ من فشل التجربة أم من نجاحها؟ أتفهم خوفي من فشل تجربة الهروب، ولكن هل يمكن أن أخاف من نجاحها؟ أخاف من الحرية أم من المستقبل، تؤمن طائفتنا بالقدر أكثر من المسلمين، كما يؤمنون بعدم فناء الروح أي تناسخها.

قررت أن أشغل وقتي وأتغلب علي خوفي بالزيارات. زرت النساء الثلاث، وبدأت بأم محمد. أصررت علي تدوين مايطلبون من مشتروات من تركيا، امرأة امرأة وطفلًا طفلًا، عاودت زيارة محمد وعنود، زرت أيضًا شقيقات محمد، فجمعت الطلبات في كراسة، شاهدها فواز وعلق ساخرًا:

ــ ما سأكسبه سيضيع على هداياكِ.

ــ سيدي، هذا تعويضًا لهن عن عدم سفرهن، ولا تقلق فلن أشتري من الغالي.

أخذت أحسب الأيام الباقية علي سفري، لا تريد الأيام أن تمضي،

هل تعاندني؟ أحس بهذا، وأثبتت الأيام ظني.

فوجئت بخبر سيئ كخبر مريم وأنا أطالع الأخبار علي جهاز الكمبيوتر:

»مواطن يقتل زوجته الثالثة السودانية لاكتشافه ممارستها الشذوذ مع ابنته الصغيرة من زوجته الثانية«.

يا ملاكي الأعظم، إنها خديجة، ما بال صديقاتي يتساقطن الواحدة تلو الأخرى؟ دارت في رأسي الظنون، هل أنتهي مثلهما؟ هل يكتشف فواز خطة الهروب، ثم يقتلني؟

محوت كل الذاكرة في شبكة النت، كما محوت الرسائل من موقع التواصل الاجتماعي. فبالرغم من أنني رأيت الموت عند الغزو الداعشي، إلا أنني أشعر الآن بخوف شديد، أريد أن أحيا، تساءلت، هل الحياة أهم أو الحرية؟ لا أدري. فرضت أن عدي لم ينجح في تهريبي، سأعود مع فواز وكأن شيئًا لم يكن، إلى أن أتحين فرصة أخري. خيرًا فعلت أنني دونت ما تريد عائلة فواز من هدايا، يجب ألا يشعر بخطتي أحد. مرت لحظة غبائي بدفاعي عن الإيزيديين مع أم محمد وعنود بخير، لكن يجب أن أكون أكثر حرصًا من قبل، أتمني الحرية ولكن لا معني للحرية لجسد ميت.

يا لحظك يا خديجة، قتلتك غرائزك. وللقدر زوجة القاتل الثانية سورية. خديجة قتلها البحث عن الجسد الأبيض غير المتوافر في

بلدها، اعترفت لي من قبل، أنها عندما حاولت أن تمارس رغبتها في السودان ولكن لم تعجبها البشرة السمراء، كما أنها تكره الرجال، إلي أن وجدت فتاة قمحية اللون، أمها مصرية ووالدها سوداني، هي من تعلمت علي جسدها، إلي أن عثرت علي مريم.

انتظرت، وصبرت إلي أن جاء وقت الرحيل، سأرحل غدًا إلي تركيا، هل سأنجح؟ لا أدري، هل سأفشل؟ وهل سيعرف فواز بخطة الهرب؟ إن علم بالتأكيد سيعاود الضرب والإهانة الجسدية، هذا إن تركني حية.

سأعرف مصيري بعد أيام قلائل، أحاول أن أغيره. وعلى أي الأحوال يكفيني شرف المحاولة إن فشلت. لا لن أفشل. سأستعيد حريتي وهويتي، سأكمل تعليمي وأحقق حلم أبي. سأنجح أو أموت، لن أعود إلي سدرا أبدًا.

- 14 -

اليوم السفر، بالأمس جعل فواز رقم هاتفي تجوالًا. أخذت رقم عدي وأعطيته رقمي، وأوصيته ألا يتصل بي، أنا من سيبادر بالاتصال. سيصل عدي إلي تركيا قبلنا ليعد خطته، لم أسأله عنها، دقات قلبي تدق مسرعة.

ودعت أم محمد بالدموع وسط دهشة الموجودين، منحت خادمتي مبلغًا سخيًا وسط دعائها لي، طار قلبي في الطائرة، شردت، تكلم فواز كثيرًا ولكني لم أسمع شيئًا منه، أخيرًا وصلنا، اتجهنا إلي فندق فاخر، كعادة العرب في حب التباهي.

أراد فواز مضاجعتي ولكني كذبت عليه:

ــ عذرًا سيدي لدي مانع شرعي

ــ متى تنتهي؟

ــ باكر أو بعد باكر.

طلب طعامًا بعد أن كدرته، هاتف بعض معارفه، أبلغني

بخروجه مساء، رقد ليرتاح ولكن النوم جفاني، متى يأتي المساء؟ أخيرًا ذهب فواز، سرعان ما اتصلت بعدي، أبلغته باسم الفندق، طلب مني الانتظار في الاستقبال.

كان بهو الفندق واسعًا ومزدحمًا، كنت أترقب الواقفين علي منصة الاستقبال، أخيرًا حضر عرفته من صورته علي موقع التواصل الاجتماعي، أبيض وطويل، ولوجهه هيبة، كانت عيناه تبحثان عني، سأل موظف الاستقبال عني فاتجهت إليه:

ــ الأستاذ عدي؟

ــ كولي؟

خرجنا مسرعين، كانت توجد سيارة تنتظرنا، عرفني بالسائق:

ــ الرفيق أبو عياش فلسطيني ولكنه متعاطف مع القضية الكردية.

ــ أين سنذهب؟

ــ إلي السفارة الألمانية.

كان أبو عياش في عمر عدي، في الخمسينيات، وفي نفس طوله تقريبًا، أصلع في وسط رأسه وشعره خفيف من الجانبين.

لم أسأل طوال الطريق رغم وجود أسألة كثيرة في رأسي، وصلنا مبني عالٍ وكبير، إنها السفارة الألمانية، جلسنا في بهو الانتظار، كان واسعًا لا يوجد به إلا موظف استعلامات يدل السائلين وثلاثة من

حراس الأمن، إلي أن أدخلونا غرفة متوسطة بها مكتب ليس فخمًا ولكنه جميل، الموظفة أربعينية، ليست جميلة ولكنها ليست قبيحة، تحت عينها هالات كثيفة، وبعينيها حزن غامض، كانت كردية، عرفتني بنفسها:

ــ أنا سورياز كردية مثلك ولكني عراقية، الآن ستنامين هنا وغدًا لي معك لقاء ولكن املأي هذه الأوراق.

ــ أنا لا أعرف الألمانية.

ــ سأساعدك.

أتممت مهمتي ورافقتني إلي حجرة نوم بالطابق الأول، حجرة جيدة بها سرير أقل فخامة من الفندق ولكن لا بأس به، فتحت لي الدولاب:

ــ هذه ملابس للنوم سأنصرف الآن، سوف يحضرون لك طعامًا حالًا.

بالفعل أحضروا صينية بها طعام جيد، رن هاتفي النقال وأنا أتناول الطعام، إنه فواز، بالطبع لن أرد، تكرر رنين الهاتف مرارًا وتكررًا، ولكني تجاهلته.

أتصور منظر فواز وهو عائد ولا يجدني، وأتصور منظره حيت يسأل عني موظف الاستقبال، وصدمته عندما يقول له:

ــ خرجت مع رجل.

لا يهم الآن، المهم أنا في طريقي للخلاص، أخيرًا عدت إلي اسمي كولي مع أنني أحببت اسم سدرا أيضًا، نمت نومًا عميقًا. وفي الصباح بعد تناولي الإفطار وجدت سورياز وعدي ومعهم ضابط شرطة ينتظروني.

قصصت لهم حكايتي بالتفصيل، حتى التفاصيل الصغيرة، كان الضابط يدون ملاحظات وأسماء، قامت سورياز بالترجمة بيني وبين الضابط، طلب الضابط حضوري للمخفر، رفض عدي وسورياز رفضًا تامًا حيث شرح عدي له:

ــ إن لفواز معارف هنا ونخشي وقوع الضرر علي كولي.

ما أجمل اسم كولي، شكرًا ملاكي الأعظم. اتفقا أن يذهب عدي مع الضابط. بقيت أنا بمكتب سورياز فقد كنت بحاجة إلى الكلام مع أحد، ولكن لديها عمل.

ذهبت إلى غرفتي، مرت الساعات بطيئة، أحضروا لي الغداء، تركت الصينية كما هي فقد كنت أتحرق شوقًا لمعرفة ما تم، زارتني سورياز بعد انتهاء دوامها، طمأنتني:

ــ سيتأخر عمك عدي، فكلي ولا تقلقي.

ــ أريد أن أعرف ماذا حدث؟

ــ سيأتي بالتأكيد ليخبرك، تناولي الطعام حتى لا يبرد.

انصرفت سورياز إلي منزلها، تناولت طعام الغذء وحان وقت

طعام العشاء ولم يأتِ عدي، دق هاتفي، ظننته فواز، ولكنه عدي:

ــ نعم مازلت متيقظة سوف أنزل حالًا.

نزلت مهرولة، علي وجهي علامات استفهام، لعدي ورفاقه علاقات طيبة حتى إن أمن السفارة سمح له بالدخول في غير مواقيت العمل، جلست أمام عديٍ ليقص عليَّ ما حدث:

ــ ذهبنا للمخفر أولًا وتم التصديق علي المحضر، ثم ذهبنا للفندق وياليت ما ذهبنا.

ــ ماذا حدث؟

ــ في البداية اشتبك معي فواز عندما علم من موظف الاستقبال أنه أنا من خرجتِ أنت معه

صمت عدي لحظة، فحفزته:

ــ ثم؟

ــ واجهه الضابط باتهامك ولم ينكر ولكن...

تملكني القلق، وبصوت مضطرب:

ــ ولكن ماذا؟

ــ معذرة يبدو أن هذا الرجل يحبك بجنون. لم يتحمل الخبر، أصيب بالفالج.

شهقت فزعة، لا أحب الشر لأحد، وفواز رغم أخطائه فإنه إنسان سمحت له أفكاره ومجتمعه بامتلاكي، هو أيضًا يعتبر ضحية.

واصل عدي حديثه:

ــ ذهبنا به إلي المستشفي وأبلغنا سفارته.

ــ هل يوجد شيء آخر؟

ــ بالطبع، تم توقيف إيزاك وإفرايم والشيخ محمد حشمت وجميع العاملين بالمركز.

ــ يا ملاكي الأعظم!

ــ إن المركز مخصص لمساعدة اللاجئات، لا بيعهن.

صمت لحظة، ثم واصل:

ــ الصحافة علي علم بالخبر، والقضية ليست هينة لأن الشرطة وجدت فتيات معظمهن إيزيديات.

ــ ماذا سأفعل أنا؟

ــ لا شيء، عليك عدم الخروج، حتى ننهي أوراق سفرك إلي ألمانيا.

ــ ألمانيا؟

ــ ستبدئين هناك من جديد. ولكن الآن لا حديث مع أحد إلا معي ومع سورياز، أو الرفيق أبو عياش الفلسطيني. أنا منتظر ضغط الرفاق في ألمانيا وإذا استلزم الأمر سأسافر إلي هناك؟

تركني عدي للعذاب ورحل. يا لنهايتك الأليمة يا فواز، نعم هو سجاني ولكني أشفق عليه جدًا، أعلم كم يحبني، ويا للمصيبة

تسببت بمصيبة للشيخ محمد حشمت ، أول من دق له قلبي، ماذا أفعل، للحرية ثمن، يجب أن أدفعه ويدفعه معي كل من شارك في مأساتي.

سافر عدي إلي ألمانيا، وامتد اليومان إلي عشرة أيام. كانت سوريياز تزورني مرتين في اليوم، كم كان حديثها معي جميلًا، قصت عليَّ حياتها، كيف استشهد أبوها وإخوانها وزوجها وطفلاها الصغيران علي يد صدام، كانوا جميعهم من الأنصار، قوات الحزب الشيوعي الكردي. قبل إلقاء صدام الأسلحة الكيميائية على حلبجة بأيام قليلة، كانت هي في مهمة في تركيا. وعندما وقعت المأساة ساعدها رفاقها على الإقامة في تركيا رغم عداء حكومات تركيا للأكراد، سألتني والحزن في عينيها:

ــ أتدرين رغم حزني علي عائلتي، يوجد ما أحزن عليه أكثر

ــ ما هو؟

ــ تعديت سن الإنجاب ولم يعد باستطاعتي الآن إنجاب أطفال ليكونوا وقودًا للحرية.

ما أعظم هذه الكلمة، الحرية، وما أغلاها. استرسلت في الحديث عن الماضي:

ــ كنت وزوجي نعد الأطفال ليكملوا المسيرة.

ــ ماذا كانت أعمارهم؟

ـ عشرة واثني عشر عامًا،

ـ هم صغار.

ـ ولكنهم أكراد يجب عليهم فهم قضيتهم منذ الصغر ولكن الطاغية صدام حرمني منهم جميعًا.

احترمت هذه المرأة، واحترمت بكاءها، لم أحاول أن أهدئها. عندما تذكرت زوجات فواز وصراعي معهن، استصغرت نفسي واستصغرتهن، هل تعرف علية أو زبيدة معني كلمة حرية!

فكرت في أن أطلب فواز لأطمئن عليه، ولكن ماذا سأقول له، تذكرت أوامر عدي بعدم الحديث معه، مالي أفكر في حال فواز والعالم مليء بضحايا الاستبداد، تذكرت أبي وهو يلعن صدام، وغضب والدتي منه بسبب اللعن، أتذكر قول أبي لأمي:

ـ إنه ألعن من شيطان المسلمين واليهود.

المضحك المبكي تحسر بعض العراقيين علي أيامه الآن!

زارني أبو عياش مرتين، الأولي أعطاني فيها رقم هاتفه وسألني إن كنت أريد شيئًا، والثانية جاء ليبشرني، نجحت مساعي عدي وهو عائد في اليوم التالي.

أخيرًا سأسفر في بلد لا أخاف فيه علي نفسي، كم هو جميل العتق من العبودية.

- 15 -

ودعت سورياز بالأحضان، لن أستطيع أن أنسي هذه المرأة، في طريقنا أنا وعدي إلي المطار سألته:

ــ كنت أريد الاطمئنان علي فواز خاصة أن موعد الطائرة مازال بعيدًا.

ــ فليذهب إلي الجحيم، هل تريدين العودة إليه؟

صرخت:

ــ لا، فقط أريد أن أطمئن عليه.

ــ من غير الممكن وجودك هناك. ثم ألم تلاحظي أن سيارة السفارة ترافقها سيارة شرطة؟ تريد السلطات ترحيلكِ بسرعة.

كنت أعتقد أن سيارة الشرطة لحمايتي فسألت عدي:

ــ لماذا تريد السلطات ترحيلي.

ــ لأنك غير مرغوب بك هنا.

ــ ماذا فعلت؟

ــ أبدا لا شيء، فقط أثرنا الدنيا والبرلمان والإعلام.

لم تعجبني لهجة السخرية من عدي، لازمت الصمت، وصلنا المطار، أنهت لنا السفارة والشرطة الإجراءات سريعًا، تجاوزنا منطقة الجوازات وانتظرنا الطائرة، سألت عدي:

ــ ماذا سأفعل في ألمانيا.

ابتسم مطمئنًا:

ــ ستنزلين في دار مخصصة للاجئين.

ــ ثم؟

ــ ننهي أوراقك الثبوتية.

ــ وبعد؟

ــ تعيشين حياتك، تتعلمين ألمانية وتعملين وتحبين وكما تريدين.

ــ أأنت متزوج من ألمانية؟

ــ نعم. ولم أعرض عليك الإقامة لدينا لسببين.

صمت ولم أعلق فنظر لي وواصل حديثه:

ــ أولًا، ستتكفل بك الحكومة الألمانية حتى تكونين صالحة للاعتماد علي نفسك، بمعني أن الحكومة ستوفر لكِ سكن مؤقت، وتتولي تدريس اللغة لكِ، وستعلمك ما قد تحتاجينه للعمل. ثانيًا حتى تعتمدي علي نفسك وتتهيئين للحياة الجديدة، للحرية.

ــ ألن أري زوجتك وأولادك؟

ــ بالطبع ستزورينا، لماذا تقولين ذلك؟

خجلت من نفسي وصمت. سرد لي أن طفلته الكبرى تبلغ ستة عشر عامًا، أي أصغر مني بسنتين، فأنا الآن في الثامنة عشرة من عمري، قضيت عامًا في الأسر وعامين مع فواز وحريمه. اسمها جولينا، تتهيأ للإقامة بمفردها مع صديقها، سألته:

ــ خطيبها؟

ــ حبيبها.

رأي عدي الدهشة في عيوني فواصل كلامه:

ــ معطيات المجتمع الألماني والغربي مختلفة عن ما في المجتمع السوري والعربي.

لم أستسغ الإجابة أو بالأدق لم أستوعبها فواصل عدي شارحًا:

ــ الإنسان في المجتمع الغربي حر في جسده كما هو حر في معتقداته، ولا أستطيع أن أدعو للحرية وأمارس القهر علي ابنتي.

سألته لأنهي هذا الحوار:

ــ وطفلك الآخر؟

ــ مارو بلغ اثني عشر عامًا، مازال في المرحلة المتوسطة، أما جولينا ستدخل الجامعة العام القادم، إلي أي مدي وصلت في التعليم يا كولي؟

ــ أنهيت المرحلة المتوسطة.

ــ هل تريدين مواصلة التعليم؟

ــ كان حلم حياتي وحلم أبي أن أدخل الجامعة لأصبح ذات قيمة، كنت أتمثل الأميرة ميان خاتون في خطواتها.

ضحك عدي ولم يعقب، لا أدري لماذا ضحك؟ هل سخرية مني ومن أحلامي؟ أو سخرية من تراثنا الإيزيدي، أردت أن أسأله ولكني لم أستطع.

أخـيرًا صعدنا الطائرة، مرت الساعات بطيئة، أعلنوا استعدادهم للهبوط، استجمعت شجاعتي وأنا أربط حزام الأمان وسألت عدي عن سبب ضحكه وهل هو سخرية مني، فرد ولأول مرة بطريقة أشعرتني بأبوته:

ــ بالطبع لا، كيف أسخر من ابنتي وابنة أخي.

ــ علام كنت تضحك؟

ــ دون غضب، علي تراثكم الإيزيدي السخيف.

خرجنا من المطار، زوجته وصديق له كانا ينتظرانا، كان لون زوجته أبيض مشوبًا بإحمرار، في وجهها كثير من النمش، إلا أنها تبدو رقيقة، أنهي الصديق إجراءات خروجي، من الجلي أن لعدي أصدقاء شتي، أكيد بسبب ماركسيته.

زوجته أربعينية مثله، لم أفهم منها شيئًا سوي جملة نطقتها

بالكردية الركيكة:

ـ أهلًا وسهلًا بك كولي.

عرفني علي صديقه، ألماني يجيد الكردية، يعمل بالخارجية، يبدو أن صلته بعدي قوية، يتعامل الصديق الألماني باحترام مع عدي، كان اسمه بول، كان طويلًا وله نفس لون زوجة عدي، وأصلع تمامًا.

ركبنا سيارة زوجة عدي، ووصلنا إلى شارع هـادئ، على جانبي الشارع تتكاثر الأشجار، دهشت من نظافة الشوارع هنا، فرحت بالأشجار فأنا أحب اللون الأخضر، وصلنا مبنى صغيرًا ذكرني بمبنى الأسر في تركيا رغم اختلافه، مكتوب عليه بالألمانية والكردية مبنى لاستضافة اللاجئات السوريات.

في المبنى العديد من الفتيات، كلهن سوريات، البعض منهن إيزيديات، كنت في غرفة صغيرة منفصلة، مشرفة البيت كردية عراقية ومعها الجنسية الألمانية، في الثلاثينات من العمر، لا تضع «ماكياج» وترتدي قميصًا وبنطلون جينز غير متناسقين، من أصول سنية ولكن يبدو أنها إحدى رفاق عدي في الماركسية.

جلست معي لتعرف قصتي، طمأنتني، لهجتها في النقاش مثل عدي، بدأت أميز اللسان اليساري، أما اللسان السني الديني فأعرفه جيدًا، أحضروا لي طعامًا، تناولته سريعًا، ونمت نومًا

عميقًا.

حضر عدي وبول في الصباح، أنهينا إجراءات الإقامة بسرعة، لا أدري هل هذه عادات الحكومة الألمانية أو أنها روح التضامن الرفاقية التي يحدثني عنها عدي الآن:

ــ كولي أمورك استقرت وستبدئين حياة جديدة ولكن عليك واجبًا تجاه الآلاف مثلكِ من الأكراد

ــ لا أفهم؟

ــ نريدك في مؤتمر صحفي لفضح ممارسات الطغمة الإرهابية والنظام السوري، من أجل آلاف الكرديات المشردات واللاتي يعانين الأسر مثلما عانيتِ.

ــ تتكلم فقط عن الأكراد، قابلت في تركيا سوريات عرب، مسلمات ومسيحيات، كما التقيت خديجة سودانية مسلمة من ضحايا حرب دارفور.

يبتسم بول، وينطق:

ــ أحسنتِ، نحن ضد الظلم لأي إنسان مهما كان دينه أو جنسه أو بشرته.

اضطرب عدي قليلًا، ثم فسر حماسته:

ــ اعذريني يا ابنتي فلطالما عانى الأكراد علي مر التاريخ.

ــ أعرف تواريخ المذابح جيدًا ضد الأكراد وضد الإيزيديين

خاصة، ولكن التجربة علمتني أن الإنسان أهم من أي تصنيف.

وقف بول وقبلني علي رأسي:

ـ أنت صغيرة، ولكن سيكون لكِ مستقبل مشرق. نعم الأكراد مضطهدون تاريخيًا من العرب، تلاعبت بهم القوي الاستعمارية ولم تعطهم شيئًا.

قاطعت بول:

ـ وللأسف، شارك الأكراد علي مر التاريخ المسلمين في المذابح ضد الإيزيديين.

ـ ولكننا كرد يا كولي، الإيزيدية ديانة وليست جنسًا ولا قومية.

ـ أقصد أن الشر موجود أيضًا عند المظلومين، وليس قاصرًا علي العرب ولا علي القوي الاستعمارية فقط.

طال نقاشنا، ولاحظت إعجاب بول بكلامي وتأييده لي، حتى قاطعه عدي:

ـ ولكننا في الحزب الشيوعي الكردستاني، ندعم خيار الكونفدرالية الآن قبل مباحثات جنيف.

ـ عزيزي عدي، أنا مع هذا الطرح كخيار مرحلي، ولكن كولي تتكلم في الأساسيات، إنها جيدة

ولكي أنهي النقاش سألتهم عن موعد المؤتمر، فرد عدي بفرح:

ـ في أي وقت تختارينه.

ـ أنا مستعدة في أي وقت.

بدأت تعلم اللغة الألمانية. تعرفت علي مسيحي من جنوب السودان، عشريني، أسود طويل ذى شعر أكرت، هرب لأنه لا يريد أن يشارك في قتل البشر، سألته:

ـ هل هي حرب أخري غير الدائرة في دارفور يا جورج؟

ضحك فظهرت أسنانه البيضاء:

ـ السودان حقل خصب لكل أنواع الحروب.

ساعدتني رفقة جورج علي تحمل الحياة غير العائلية هنا، كرهت أن أصاحب فتيات، فللأسف فتيات الدار منقسمات دينيًا وعرقيًا، حملن كل سيئات مجتمعنا السوري إلي ألمانيا، عانت منهن سوزان المشرفة كثيرًا لذا فقد سعدت ببعدي عن الصراعات. لامني اللاجئات الإيزيديات لموقفي المتوازن، ولكني تجاهلتهن.

لا أدري رغم إعجابي بحديث جورج إلا أن سواد وجهه وأسنانه البيضاء تثير شهواتي، سألته عن علاقاته السابقة فنفي وجودها، دهشت صائحة:

ـ مع أن سوادك مثير.

خجل ونظر إلي الأرض، خجلت من نفسي، ثم قررت ألا أخجل، أريد شيئًا فلأخذه، وأنا أريد هذا الشاب. طبعت علي

شفتيه قبلة وأطلت فيها دون أن يعترض.

دعوت جورج لحضور المؤتمر، كاميرات كثيرة، صحفيون وصحفيات، سياسيون تقليديون ومناضلون، اختلطت الوجوه، شرحت معاناتي كاملة، تعاطف معي الجميع، أنهيت الحوار بقولي:

ــ أنا الآن حرة، وأيضًا حياتي غير معرضة للخطر، سأقرأ مرات كثيرة في الأديان لأختار الإله المناسب لي. أنا الآن حرة، لن يخطفني شاب إيزيدي علي عادة أهلي ليتزوجني فيقول له والدي جعلتها حذاءً فألبسها في قدميك. أنا الآن حرة أدعو ليس فقط لحق الحياة والحرية لوطني وقومي بل لحق الحياة والحرية لأي إنسان في أي زمان ومكان مهما كان لونه أو جنسه أو دينه أو جنسيته، اهتفوا معي حرية .. حرية .. حرية.

هتف الجميع ووقف بول وجورج وصفقا بحرارة، صفق عدي مع الآخرين، أصعدت جورج إلي المنصة:

ــ حيوا معي هذا الشاب الذي هرب من بلاده ليتجنب الاشتراك في خطيئة قتل البشر، يجب أن نأسف لقتل أي شخص مهما كان السبب وأيًا كان دينه.

صفقوا لجورج بحرارة، رفعنا أيدينا متشابكة، وواصلت:

ـ علي العرب أن يتعاطفوا مع الضحايا من غير المسلمين، وعلي أوروبا وأمريكا أن تتألما علي الجميع ليس فقط علي ضحاياهما.

اهتفوا معي للإنسان..

نزلنا من المنصة وسط تصفيق الحاضرين، ولم أجعل جورج يسحب يده، سألته:

ــ أنا أريدك، هل توافق؟

ضغط علي يدي مبتسمًا، واتجهنا إلي سوزان المشرفة، سألتها سؤالًا واحدًا فقط:

ــ هل يمكن أن أدعو هذا الشاب إلي غرفتي هذه الليلة؟

تمت

awraaq@live.com